سنگیہ کی

کوٹادی

تجليد كتب
صالح الدقر

[redacted]

سينكيفتش ، هنريك .

كو فادس .

[redacted]

AG 8
AG 17
MAY 5 5
AG 18
OC 21
MR 23 59
FEB 2 60
FEB 16 60

891.853
Si57qA

LIBRARY

كوفاديس

وهي قصة الفيلم المرتكزة على الرواية الخالدة

للكاتب : هنري سنكيفكس

اقتباس : ابرهيم مطر

بيروت ص. ب. ٢٣٥

١٩٥٤

طُبع في المطبعة الاميركانية بيروت

هدية السرة
لصيف عام ١٩٥٤

تصدر مكتبة المشعل الحلقة الثالثة من السلسلة الرباعية للروايات الدينية العالمية الشهيرة – تلك السلسلة المؤلفة من ابن حور – الرداء – كوفادس – والكأس الفضي . . .

تقديم الكتاب

■

تود مكتبة المشعل ان ترسل لكم مع هذا الكتاب تحياتها واملها ان تستحسنوا هذه الرواية التي اختارتها لكم بدلاً من عددي الصيف من مجلة النشرة . ويتراءى لي ان لهذا الكتاب رسالة مؤاتية لابنا. هذا العصر سواء اكانوا افراداً ام جماعات ، شعوباً ام حكومات ...

وانه ليبدو ان الكثرة من الناس لا يعرفون اين هم متجهون . فهم يعيشون على الآمال والتمنيات دون الافتكار بالخطط والاهداف . ولا شيء يسلب الحياة لذتها وروعتها اكثر من ضياع الهدف وعدم تحديد الغاية ، اذ لا يرغب احد منا الدخول في سباق لا يعرف له هدفاً ولا ينال المنتصر فيه جائزة .

وان شئنا او ابينا فنحن شركاء في سباق الحياة وكلّ منا يمثل دوره في لعبة الحياة الكبرى . وهؤلاء المتبارون لا بدّ لهم ان يحدّدوا اهدافهم ويقرروا جعالاتهم . وما اكثر الذين ركّزوا هدفهم على المال او الجاه ، غير ان الرسول بطرس في كوثادس وجد له هدفاً مغايراً ساعة تطلع الى النيران التي التهمت معالم المدينة الخالدة

وساعة سمع صراخ المؤمنين الذين سيموا اشد صنوف العذاب والاضطهاد . فهو بالرغم من كل الشدائد والمصاعب جعل هدفه الاوحد ان يعيش تلميذاً حقيقياً ليسوع ، ورسولاً وفيا لذلك السيد العظيم .

وحالما دوّت كلمة المسيح في اذني هذا الرسول الامين وسمع كوقادس تتجاوب في الفضاء. عاد الى روما ليثبت صدق تلمذته للسيد عن طريق موته واستشهاده . انه في هذا السبيل وجد فرحه واطمئنانه اذ ادرك ان هناك اموراً في الحياة هي اثمن بكثير من المال ، واعظم من القوة والسلطان .

ولا يدرك قيمة هذه الامور الروحية الا الذين تذوقوا نعمة الله واختبروا محبته . وعسى ان يجد القراء في هذا الكتاب عدا عن المتعة الادبية الطريق الصحيح للحياة ، والهدف السامي الذي من اجله يجب ان نسعى ونعيش ...

هنري غلوكلر
مدير المطبعة الاميركانية
ومكتبة المشعل بالوكالة

الفصل الاول

عودة القائد الروماني ماركوس من بريطانيا

لشدّما اخذت معالم عاصمة الدنيا ترتسم امام نواظر هؤلاء الجنود الذين عادوا من ساحات الوغى في بريطانيا . فقد ابلى افراد الفيلق الرابع عشر بقيادة الجنرال ماركوس البلاء الحسن ، مجاهدين جهاد الابطال ، ومحرزين نصراً تلو الآخر في ميادين القتال . . .

وها هم اولئك الجنود المظفرون يقفون على ابواب روما ، وحرابهم مرفوعة الى العلاء ، وسيوفهم مسلولة ، وهتافاتهم تشق عنان السماء . . .

منظر للجيوش الرومانية المظفرة وهي تسير في طريق ايبان الشهيرة

وكأنهم بتظاهرتهم هذه انما هم يسخرون من اولئك الشبان الذين آثروا البقاء في احضان الترف ، ناشدين النعيم المقيم في ارجاء العاصمة العظيمة .

وانعكست اشعة الشمس الذهبية على الدروع الفولاذية ، والنسور الرومانية التي كانت رمزاً لعلم الامبراطورية الخفاق . وزادت تلك الخيوط الذهبية المتلألئة الموكب العظيم فتنة وجلالاً وبهاء . وكنت ترى اعمدة الغبار تملأ الفضاء على اثر تحرك تلك الكتائب الجرارة وهي تسير في موكب نصرها سالكة طريق ابيان الشهيرة . ولا غرابة فطريق ابيان هي الطريق الملكية التي سار فيها الفاتحون في طريقهم الى روما والتي سلكها القواد المظفرون عند اوبتهم الى عاصمة امبراطوريتهم .

وكنت ترى ايضاً عدداً غفيراً من الاسرى يسيرون خلف هذا الموكب الحافل . وكان هؤلاء المساكين قد قيدوا بسلاسل حديدية وشدوا بحبال سميكة خلف المركبات . وكانوا يسيرون مطأطئي الرؤوس ، منحني الظهور من الخجل والاعياء . وما اكثر ما الهبت السياط ظهورهم فأسالت الدماء من جلودهم !

وظهر القائد الشهير ماركوس في مقدمة الجيش ، وكان يطل من مركبته التي يقودها بنفسه على جحافل هذا الفيلق المظفر . وقد تجلت مظاهر القوة في ملامح وجهه ، وصلابة عضلاته . وارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه ابتهاجاً بهذا النصر العظيم الذي حققه لبلاده . وكنت

تراه يتلفت بين الآونة والاخرى الى الوراء ، ليرى جنوده البواسل يسيرون بانتظام ، في طريق ابيان الشهيرة المؤدية بهم الى روما الجبارة عاصمة امبراطوريتهم .

وركب على مقربة من القائد ماركوس ، مساعده فابيوس . فالتفت اليه القائد وقال : هيا بنا نتسلق ذروة هذه الرابية المجاورة لنحظى برؤية روما عن كثب . فقد طالت غيبتنا عنها ، ونحن باشد الشوق اليها . وشايعه فابيوس في رأيه ، وللحال اخذا يلهبان ظهور الجياد بسياطهما . وما هي الا دقائق معدودات حتى كان القائد صحبة معاونه يطلان على مدينة روما المسجاة بين تلك التلال السبع المقدسة والقائمة على تلك المرتفعات .

وهتف ماركوس : ها نحن نطل على المدينة التي حرمنا من مشاهدتها طيلة اعوام ثلاثة . وعلق فابيوس على هذا بقوله : حقاً انها كانت مدة طويلة ... وما احلاها من ساعة اصل فيها منزلي واجتمع بزوجتي وباولادي .. ! وهنا ترقرقت الدموع من عينيه ، واهاجت الذكريات عواطفه .. !

واستولت على القائد ومساعده موجة من الفرح الشديد عبّرا عنها بفترة صمت عميقة . ولم يعكر عليهما صفو هذه النجوى الروحية سوى قدوم احد الضباط . وكان هذا من اعضاء الحرس الامبراطوري فعرّفهما عن نفسه بقوله : انا ڤلاڤيوس احد ضباط الحرس العريتوري ، وقد اوفدني الامبراطور لانقل اليكما ما يلي : انني باسم نيرون – حاكم

البلاد ، ومعبود الشعب اقول ان انباء انتصاراتكما قد سبقتكما الى روما . . . وقاطعه ماركوس بقوله : ومن اجل ذلك نحن تواقون لدخول العاصمة في موكب النصر هذا .

وتناول الضابط رسالة سلّمها الى ماركوس . ففضها هذا بسرعة وقرأها ثم ناولها الى مساعده ليقرأها بدوره . وتمتم القائد على الاثر قائلًا : ما اروع هذا الاستقبال لنا ! فبعد غياب ثلاث سنوات عن روما نفاجأ الآن بعدم السماح لنا بدخول روما . . . ! وها هي اوامر الامبراطور صريحة . فهو يطلب منا ان نقيم خارج العاصمة وان نضرب خيامنا في ضواحيها ، وان ننتظر اوامره السنية . فاذا شاءت ارادة الامبراطور في المستقبل ان يسمح لنا بدخول روما كان لنا ذلك . . .

وما كان من القائد على اثر تلقيه هذه الانباء المروعة ، الا ان تناول مقود مركبته بيده ، موجهاً بها الى ابواب المدينة بقصد ان يقابل الامبراطور بنفسه . واخذ يسير بسرعة فائقة ، آمراً الحرس العربتوري ان يفسحوا له الطريق لكي يصل على جناح البرق الى نيرون ، فيحظى بمقابلة الامبراطور ، فينتزع منه الاذن بدخول جيوشه المظفرة المرابطة خارج الاسوار ، الى قلب العاصمة .

وسرعان ما اخذت العيون تشخص الى هذا القائد ، وهو يسير بسرعة فائقة الى قصر الامبراطور . وكان لا ينظر يمنة او يسرة ، ولم

يعبأ بالجماهير التي احتشدت لمشاهدته ، ولم يبالِ بمن داسته عجلات عربته . فهذه كانت نظرة الرومان الى الحياة . فانّ حياة الناس رخيصة ، ولا قيمة للافراد لاسيما ان لم يكونوا من اقحاح الرومانيين . وكانت حوادث دوس الناس تحت عجلات المركبات امراً عادياً ومألوفاً عندهم . ومن كان يتجاسر ان يطالب القواد واصحاب السلطان بالدماء المهراقة او الارواح المزهقة ؟ !

اجل لقد سيم العبيد في ذلك العهد اشد اصناف العذاب ، وقد تذوقوا الموت الوانـاً واشكالاً . فمنهم من كان يسخر في العمل المضني في السفن والمراكب ، وآخرون كانوا يعرضون للثيران الهائجة لمصارعتها ، وكثيرون غيرهم قدموا ضحايا للاسود الجائعة في الامفيثياترات ودور اللهو العامة . ولم يكن في الوسع رفع هذا الظلم والحيف عن العبيد ، اذ لم يقم قانون عادل لينصفهم ، ولا ظهر امبراطور خير يحسّن احوالهم ويخفف هذه الاحكام الجائرة عنهم .

بقي ماركوس يغذ في سيره حتى اقترب من القصر الامبراطوري وكان هذا القائد مزهواً بنشوة النصر ، اذ هو الآمر على هذا الجيش المظفر الذي حقق الانتصارات الباهرة للامبراطورية . وقد جاء ليقابل نيرون ويأخذ منه اذناً لدخول جيوشه مدينة روما . وحالما وصل ابواب القصر ، نزل من مركبته ، وسلّم اعنة الخيل الى احد الحرّاس ، واخذ يخترق اروقته وقاعاته المملوءة بالتحف والنفائس ، والمزينة بالتماثيل والاعمدة

المرمرية والرخامية . وكانت هذه التماثيل تملأ الغرف والردهات فهي تمثل ابطال روما والهة روما .

وانتشر حول هذه النصب والتماثيل الحراس والخدام الذين وقفوا كالاصنام استعداداً لخدمة الامبراطور . وقد امتلأ القصر باصناف الناس ، الذين ألفوا حاشيته ، وندماءه وحراسه . وعج القصر ايضاً بجماعات من النساء الراقصات والمغنيات ، والفاتنات الساحرات . وبفرق من العازفين والمطربين ، ورجالات الدولة ، وحكّام الولايات .

والناس على دين ملوكهم ، فهؤلاء جميعاً شايعوا الامبراطور في نزواته : فاذا ما لعبت الخمرة في رأس نيرون كانت بطانته تشايعه ، وعندما كان هؤلاء يثملون بالسكر كانوا ينسون جميع المقاييس الاخلاقية الرفيعة ، معتنين فقط بارضاء هذا الامبراطور الثمل ، ومسايرته في هرجه ومرجه . وكان نيرون عندما تلعب الخمرة في رأسه يبدأ بنثر النقود امام الحضور . وما اكثر الندماء والمهرجين ، والكهان والعرافين الذين التفوا حول نيرون الخليع ليكيلوا له المديح ، وليثروا المال من خزائنه وجيوبه . . !

وتجاهل ماركوس وجود هذا العدد الوفير من حاشية الامبراطور وبطانته . وقد رآهم بالبستهم الملوّنة والمزركشة ، ملتفين بعباءاتهم الرومانية الفضفاضة . ولم يكن يجذبه جمال السيدات الرومانيات ، او قوام الاغريقيات الرشيقات ، او فتنة النساء الشرقيات اللواتي ملأن الصالات

واجنحة القصر . انه لم يكن ليعبأ بكل هذا فهو يريد مقابلة الامبراطور واخذ الاذن لجنوده بدخول روما . ولهذا ظل يسير من غرفة الى اخرى ، وهو يتلمّس اثار الدماء التي ما برحت ظاهرة في اعمدة الرخام المائلة ردهات القصر والتي تلوثت من جراء كثرة الاغتيالات وسفك الدماء .

اجل ان اقدامه وطئت سقوف الغرف المظلمة التي كان يحشر ضمن جدرانها القواد والاعيان ليلاقوا حتفهم فيها . ففي احداها سجن دروسس الذي اضطر الى قضم اصابعه من فرط جوعه . وفي الاخرى زج كلوديوس الذي ادعى الالوهية فطوح في تلك الغياهب ليظل يرتعش ، ويهنأ بنوباته الهستيرية ..

وانك لترى وايم الحق صورة مصغرة لروما ولحياة الترف في قصر نيرون . فهذه كانت حالة البلاد اجمالاً في عام ٦٤ ب. م. وقد رسم لنا قصر الامبراطور صورة واضحة عن الحياة الرومانية المترفة الخليعة . ولا عجب ففي كل ركن من ذلك القصر الامبراطوري تجاوبت آنات الارواح التي ازهقت ، والشخصيات التي صرعت او اغتيلت . وهؤلاء الكثرة من النبلاء الذين تباهوا بلابسهم الثمينة ، واختالوا باردیتهم المزركشة كانوا لا يضمنون بزوغ نهار آخر عليهم ، لان يد الغدر والاثم كانت تكمن في كل ركن من اركان ذلك القصر .

واخيراً دنا ماركوس من مقصورة الامبراطور ، فالتقى بضابطين يحرسان الباب . فعرّفهما بنفسه قائلاً : انا ماركوس – قائد الفيلق

الرابع عشر ، وقد جئت لاقابل جلالة الامبراطور . واستعد احد الضباط لان ينقل رغبته الى نيرون . وظل ماركوس في انتظار الاذن له بالمثول امام صاحب الجلالة . وفي تلك الفترة اخذ يذرع جنبات الغرفة ، ويروح ويجيء ، وهو يفكر في مصير جنوده ، ومصير هذه الامبراطورية المترامية الاطراف التي كان يحكمها امثال نيرون الطاغية ، ويدير دفة شؤونها عاهل فاسد خليع ...

الفصل الثاني

مقابلة ماركوس للامبراطور نيرون

دخل الضابط مقصورة الامبراطور ليستأذن للقائد ماركوس بالمثول في حضرة صاحب الجلالة . وحالما رفعت الستائر المخملية التي كانت تفصل نيرون عن رجال حاشيته بان الامبراطور وهو غارق في ملاهيه ، ومستسلم للذاته . كان نيرون عندذاك جالساً فوق الطنافس المخملية ، متكئاً بذراعيه على الوسائد الحريرية ، وعيونه شاخصة الى الراقصات اللواتي كنّ يتلوين في حضرته ، ويقمن برقصات مثيرة لشهواته . وتضوعت منه الروائح العطرية ، وانطلقت مع زفيره ابخرة الخمرة التي كانت تملأ فمه .

كان نيرون يهوى الموسيقى لذلك كنت تراه يصغي بلهفة الى ضاربات الصنوج ، والعازفين على آلات الطرب . وكلما نالت اعجابه اغنية ملأ كاسه بالخمر وشربه حتى الثمالة . ووقفت على مقربة منه جارية كانت تمشط له شعره المسترسل ، واخرى تدهن رجليه بالطيب . واقتربت اخريات منه حاملات اطباق الفاكهة اللذيذة ، والوان الاطعمة الشهية ، وزجاجات الخمر المعتقة .

صورة نيرون الطاغية مع مستشاره بروتينيوس

لم يكن نيرون قد تجاوز الثلاثين من عمره ، اذ كان في عنفوان شبابه وفي زمن فورة عواطفه ، وانطلاق شهواته . وكان سميناً ومنتفخاً ، كثير التقلب ونزوعاً الى الكبرياء . وما اسرع ما التف حوله لفيف من الندماء والمتملقين ، الذين شايعوه في حركاته وسكناته ، وكيفوا امزجتهم لتتلائم مع مزاجه . فكانوا اذا شاهدوه منفعلاً صمتوا ، واذا لمسوا منه ميلاً الى الطرب واكبوه في طربه . وكثيراً ما أجبروا على استحسان تلك الانغام النابية وغير الموسيقية التي كان يتغنى الامبراطور الخليع بها ، ويرجعها بين الآونة والاخرى ...

وكان بروتينيوس خال القائد ماركوس من المقربين الى نيرون وقد

اتخذه الامبراطور مستشاراً له . وكان مفروضاً على رئيس الحرس البريتوري ان يلازم شخص الامبراطور ليتولى بنفسه المحافظة على حياة عاهل الدولة . ولم يكن بيجلوس – رئيس الحرس – من الاشخاص الذين تهمهم الموسيقى ، او تستهويهم الالحان ، لكنه اضطر كباقي المقربين ان يساير الامبراطور فيحني رأسه استحساناً لدى سماعه الامبراطور يعزف على قيثارته انغاماً ناشزة ، او يخرج اصواتاً متنافرة .

واقترب الحاجب من شخص الامبراطور ليستأذنه بالسماح للقائد ماركوس بالمثول امامه . وسأل نيرون مستشاره : ومن يكون ماركوس هذا ؟ فافهمه بروتينيوس انه ابن اخته ، وانه قائد الفيلق الرابع عشر الذي عاد منتصراً من ميادين القتال في بريطانيا . ولما سمع بيجليوس ما دار من حديث بين الامبراطور وبين بروتينيوس قال : يظهر ان هؤلاء القواد لا يمتثلون الى الاوامر التي اصدرها صاحب الجلالة . فقد كانت ارادة سيد البلاد ان تبقى تلك الجيوش مرابطة خارج اسوار روما الى ان يؤذن لها بالدخول . وتساقطت هذه الكلمات في اذان نيرون فأفاق من هجعته ، وصحا من سكرته واذا به يعترض قائلاً : وكيف تجاسر هذا القائد ان يخالف اوامري ؟ !

فاجاب بروتينيوس قائلاً : لست اشك – يا صاحب الجلالة –

باخلاص ماركوس لكم . ولا اخاله دخل روما بجنوده ، انما جاء بشخصه ليقدّم الولاء الى جلالتكم . فانتم سيد البلاد الاوحد ومعبود الشعب باسره . وارتسمت ابتسامة عريضة على شفتي نيرون ندى سماعه كلمات الاطراء هذه . ومن المعروف ان نيرون كان سريع الغضب كثير التقلب ، هوائي المزاج . وكثيراً ما شابهت عواطفه يد الرقاص التي كانت تميل باستمرار تارة الى اليمين وطوراً الى الشمال .

ومثل ماركوس امام الامبراطور وحيّاه قائلًا : ليعش الامبراطور نيرون – سيد البلاد ومعبود الشعب ... ورد نيرون التحية عليه بهزات من رأسه ثم اردف قائلًا : ان خالك بروتينيوس كان يحدثني عن شجاعتك وولائك . وانه ليسرني ان تكون مثار اعجاب هذا الشعب ، والقائد الآمر لهؤلاء الجنود الاشاوس. وانحنى ماركوس احتراماً للعاهل العظيم ثم قال : انّ حياتي وما لدي هو وقف لبلادي ، ورهينة لامبراطوري ، بيد ان جنود الفيلق الذي كان لي الشرف بتزعمه قد تغيبوا مدة طويلة عن اوطانهم وهم بلا شك يتوقون للاجتماع بعائلاتهم . وان منعهم من دخول العاصمة ليضعف من معنوياتهم ، ويؤثر كثيراً على نفسيتهم ، فلذلك جئت استأذن لهم بدخول روما ...

وللحال اخذ نيرون يعاتب رئيس الحرس قائلًا له : كان الاجدر بك ان تخبر القائد السبب الذي من اجله أخرنا دخول هذا الفيلق الى

روما ... ثم التفت الى ماركوس وقال : كانت خطتنا التريث قليلاً ريثما تعود فيالقنا المظفرة من ميادين القتال الاخرى ، عندئذ تتلاقى جيوشنا العائدة من آسيا وافريقيا معاً . ويدخل الجميع عاصمة الدنيا في موكب مظفر شامل ...

وها هو الشعب يهوى هذه الاحتفالات ، وانه ليطيب له ان يرى قواده الظافرين ، وابطاله الميامين ، وجيوشه المحاربين يدخلون روما تحت اقواس النصر ، وفي مهرجان شعبي عظيم . ونال هذا الجواب من ماركوس استحساناً كبيراً . فانحنى على الاثر للامبراطور وخرج من عنده وهو يطلب منه الصفح لهذا الازعاج الذي سببه له ... وطلب بروتينيوس من الامبراطور ان يسمح له بالاجتماع مع ماركوس الذي طالت مدة غيابه عنه . فاظهر الامبراطور موافقته بهز رأسه . ثم عاد الى الاستمتاع بتلك اللذاذات والاطايب التي ملأت ابهاء قصره .

اما بروتينيوس فامسك بذراع ابن اخته ، وبدأ يجاذبه اطراف الحديث . ثم دعاه لكي يقضي بعض الوقت في منزله قبل ان يتوجه الى صقلية – مسقط رأسه . فاجابه ماركوس : انه سوف يقضي قرابة الشهر في روما . فطلب اليه خاله ان ينزع الى الراحة ، وان يتمتع بالملاهي التي حرم منها في ميادين القتال . وقال له لقد جلبت لك جارية جميلة من اسبانيا ، بشرتها بلون الحليب ، وشعرها بلون النحاس . هذه اضعها تحت تصرفك لتكون متعة لك في فترة راحتك واستجمامك .

ثم اهيب بك ان تبيت في بيت بلاوتس الريفي ، فهذا خير لك من المبيت في المضارب خارج اسوار المدينة .

وسأل ماركوس خاله وهما يتركان مقصورة نيرون ان كان صحيحاً ما اشيع عن قتل الامبراطور لامه وزوجته . فاجاب بروتينيوس : هذه لغة السياسة التي لا تفهمها ايها القائد الباسل . والافضل لك ان تقول ان اغريبا واكتافيا قد ازيلتا من الوجود في سبيل مصلحة نيرون . انه تزوج حديثاً من پوبايا ، وهذه المرأة تشبهه في مسالكه وتصرفاته ، وفي زواجه منها وجد شنّ طبقة ...

وعلق ماركوس على حديث خاله بقوله : انا لا يهمني شيء من امور السياسة ما دام الجيش قوياً ، والاموال تتدفق عليه ، والاجور تدفع الى جنوده المحاربين . فالامبراطورية تظل صامدة ما دامت جيوشها قوية . وضحك بروتينيوس من تصريحاته هذه وعلّق عليها بقوله : هذه افكار الشباب الصادرة عن حسن النية ، ومضاءة العزيمة ولكنها بعيدة عن النضج والاختبار . فالقوة يا ماركوس تتجلى بالادارة الحسنة ... وبعدالة الحكام ... وبالاخلاص للبلاد ... وبالسهر على مصالح الشعب ...

وترك ماركوس قصر الامبراطور ووجهته مقر قيادته . ومن هناك سار برفقة فابيوس الى بيت بلوتيوس الريفي . وكان بلوتيوس احد القواد المتقاعدين الذين اعتزلوا الخدمة العسكرية ، وآثروا صرف البقية

من عمرهم في تلك الڤيلا الجميلة التي بناها لسكناه في تلك البقعة الريفية المنعزلة . وحالما اقترب القائدان من الدار استقبلهما الخدم بحفاوة واجلال . وزعقت البغاء التي كانت على الباب بكلمة عبيد . وكأنها تعودت ان تكرر هذه الكلمة كلما دنا زائر من ابواب هذه الدار لتدعو العبيد ليستعدوا لاستقبال الزوار الوافدين .

وتطلع القائدان الى الازهار الجميلة التي ملأت صحن الدار . فشاهدا الاصص المزروعة بالزنابق والورود منضدة هنا وهناك . وانعكست عليها اشعة الشمس ، وزادتها الطبيعة فتنة فوق فتنة . وتناثرت المياه من افواه النوافر ، وانتصبت التماثيل البرونزية على المماشي ، ورصعت ارض الغرف بالفسيفساء الجميلة ، وزينت جدرانها بالنقوش البديعة ، ورسوم الطيور والاسماك . وحيثما اجال المرء بصره رأى مشاهد ساحرة خلابة . وكأنّ هذا المكان غدا واحة يجد فيها كل متعب راحته وصفاءه وكل مسافر ملجأه ومستقره .

وظهر على الباب بلوتيوس وزوجته ، فرحّبا بالزائرين الكريمين ، ودعياهما للنزول على الرحب والسعة في بيتهما . واثنى بلوتيوس على شجاعة زميليه في ضروب القيادة وميادين القتال . فاجابه ماركوس : اننا ايها القائد قد سرنا في اثر خطواتك وسلكنا الطريق التي عبدتها لنا ، عندما كنت تحارب في بلاد الغال وبريطانيا ، اثناء شبابك وزمن خدمتك في الجندية .

وتبادل القواد اعذب الاحاديث . ثم جاءت صاحبة الدار تقودهما الى الغرفة المعدة لاستراحتهما . وقالت لزوجها : ربما كان ضيفانا في حاجة الى الراحة . فوفر اسبابها لهما ، وقدهما الى غرفة الحمام عساهما في حاجة الى الاستحمام . فسار بهما بلوتيوس الى الحمام حيث اخذا حماماً ساخناً على الطريقة الرومانية . وبعد ذلك اركنا الى غرفتهما حيث تمتعا بلون من الراحة بعد عناء السفر ، ومشقات الطريق ...

الفصل الثالث

ماركوس يقع في حب فتاة مسجونة

انتهى القائدان من الاستحمام ، واخذا يتحدثان في شتى الشؤون العامة والخاصة . واثار وجودهما في تلك القيلا ذكرى للحياة الهنيئة الوادعة ، وكانا قد حرماها ردحاً من الزمن بسبب معيشتهما في المخيمات والمعسكرات . وللحال اتجهت افكار فابيوس الى افراد عائلته فقال لزميله : ان آخر نبأ اخذته من زوجتي يفيدني ان ولدي الذي تركته صغيراً قد نما واصبح في طول امه ...

وقاطع حديثهما دخول العبد اورسيوس الذي كان يحمل جرة من الماء استحضرها لهما من اجل غسل الفواكه التي كانت على وشك ان تحضر لهما . وكان اورسيوس ضخم الجثة ، مفتول العضل ، حتى خاله ماركوس احد اولئك المصارعين الذين يتهنون فن المصارعة في الامفيثيترات ودور اللهو .

– وكذلك سأله قائلاً : ما هو البرنامج الذي لديكم في الامفيثيتر ؟ !

– اجاب اورسيوس بهدوء واتزان : انا لا اعرف شيئاً عن هذا ولست ممن يعنى بهذه المواضيع ...

– قال : وهل تعني ان بلوتيوس لم يفكر في استخدامك كمصارع

فان جسمك الضخم يساعدك على ذلك . وفي وسعه ان يستدر الاموال الطائلة عن طريقك . . . !

– اجاب : انني لا احارب مطلقاً ، لان القتل في مذهبي جرم واثم .

– واستغرب ماركوس منه هذا الجواب وقال : اعتقد انه في وسعك ان تقتل خمسين نوبياً بيد واحدة . . . وهل تعتبر قتل هؤلاء خطية ؟ ! اني اعجب بهذه الافكار الفلسفية الجديدة التي بدأت تتسرب الى بعض الجماعات منكم ؟ !

وغادر ماركوس غرفة الحمام بعد ان ارتدى ملابسه المدنية ، ثم توجه الى الحديقة فاذا فتاة جميلة تلتقط الازهار ، وتملأ بها زهرية مصنوعة من المرمر العرّاق . واخذ ماركوس يحدّق في هذه الفتاة ، وكأنّ النظرة الاولى جعلته اسير حبّها . وشرع يتميزها فاذا عيناها زرقاوان ، وشعرها اسود ، وعنقها طويل ، وقامتها رشيقة . فناداها قائلاً : ايتها الفتنة الساحرة ان كل شيء فيك جميل . . . وهل لي ان اعرف اسمك ايتها الغزالة الرشيقة ؟ !

– اجابت : اسمي ليجيا . . .

– قال : وسوف اقدم بضعة ازواج من الحمام قرباناً على مذبح ڤينس – آلهة الحب والجمال – تخليداً لهذه الذكرى الجميلة والمقابلة السعيدة . . .

– وحالما سمعت ليجيا ذكر اسم آلهة الحب والجمال الوثنية صرخت قائلة : لا اخال قرابينك تسوى شيئاً . .

– وامسك ماركوس بذراعها وقال : يظهر ان بلوتيوس قد احسن

الاختيار عندما ابتاعك من سوق العبيد .

– اجابت ليجيا : اعلم ايها القائد العظيم انه لا يوجد سادة او عبيد في هذا البيت ، اذ اننا كلنا اخوة في الرب .

– وفارقت الكبرياء روح هذا القائد فقال لها : ان غياب ثلاث سنوات عن الوطن هي التي قسّت قلبي ، وصلّبت احساساتي فمعذرة ان كنت قد كسرت احساساتك يا ليجيا . . .

– قالت : انك لم ترتكب ذنباً يستوجب المسامحة . وليتك تتركني لاتابع قطف الزهور . . .

واستسلم ماركوس لاحلامه الذهبية المعسولة ، ولم يفق من تلك الاحلام النهارية الا عندما دعاه الخادم لتناول طعام العشاء . فدخل غرفة الطعام وجلس على المائدة مقابل ليجيا . وظلت عيناه تحدقان ، وتتملآن من جمالها . وكان بلوتيوس يجلس على رأس المائدة وزوجته پومبيا في الطرف المقابل .

– وتناول ماركوس حبة زيتون وقال : اتذكر يا فابيوس كيف ان البريطانيين احاطوا بنا قرب مدينة لندن ، وكيف اننا بشجاعتنا استطعنا ان نتغلب عليهم . ثم التفت الى ليجيا وقال : اتفهمين شيئاً عن هذه الخطط العسكرية ؟ !

– قالت : انا لا احبّ الحرب . . . واعتقد ان هؤلاء البريطانيين انما كانوا يدافعون عن اوطانهم . . .

اجاب ماركوس بحدّة : لا بل هؤلاء حاولوا التمرد على روما . ثم

تطلع الى ليجيا وحدجها بنظراته قائلًا : يظهر ان انباء الانتصارات التي احرزها فيلقنا لم تسرك . وهذه عادة النساء الرومانيات . . !

– قالت : انا لست برومانية . . !

– واستغرب ماركوس منها هذا التصريح . فتقدمت پومپينا لتنقذ الموقف قائلة : ان ليجيا ليست ابنتنا واسمها في الاصل كالنتيا ونحن قد غيرناه لها ، ساعة تبنيناها واتخذناها ابنة لنا . فهي في الحقيقة ابنة ملك ليجيا وقد أخذت رهينة حرب . وحاولنا ان ننسيها ما اصاب بلادها بالحدب عليها ، وباشراكها في حياتنا البيتية الوادعة .

وما كادت پومپينا تتم حديثها حتى ظهر في الباب رجل مسن عرفوه للحال بانه بولس رسول الامم . وكان يلبس عباءة من الصوف ، ووجهه يفيض بشراً وحبوراً . ثم صافح باوتيوس وباقي الافراد الذين حواهم ذلك المنزل الوادع . وعرّفه باوتيوس على ضيفه ثم قال هذا هو صديقنا الحميم بولس الطرسوسي – رسول الجهاد الى الامم . . .

– والتفت اليه فابيوس وسأله قائلًا : يظهر انك جئت من بلاد بعيدة لانّ اثار السفر بادية على ملامحك .

– اجاب بولس : لقد جئت من انطاكية – وقد مررت بعدها بكورنثوس وها انا الآن اهبط عاصمة الامبراطورية العظيمة . . .

– وسأله ماركوس : وهل انت يوناني ؟ !

– اجاب : انني عبراني ، ومولود في مدينة طرسوس من اعمال آسيا الصغرى . بيد انني قد حصلت على الرعوية الرومانية . . .

– وسأله ماركوس ثانية : واين تقع طرسوس ؟ ! اخالها احدى مدن فلسطين ، فقد اشتهرت تلك البلاد بالفتن والقلاقل ... فقد سمعنا الكثير عما يجري فيها من تمرد وعصيان ، وتظاهرات وثورات ...

– وقال فابيوس : اظنك يا بولس احد اولئك التجار الذي يترددون على بلاد الشرق .

– اجاب باوتيوس : ان صديقنا معلم وليس تاجراً . هو معلم للفلسفة ..

– وقاطعه بولس قائلاً : او تظنون انني طيلة هذه المدة كنت اعنى بالفلسفة ؟ ! كلاّ فانا اكرز بانجيل سيدي واحمل بشارة الخلاص الى الامم !

صورة بولس – رسول الجهاد للامم

– قال ماركوس : لا تهمني الفلسفة او التعاليم الاخرى انما يكفيني ان اخوض المعارك ، وان اتمتع بجمال الطبيعة الساحر . فهلم بنا يا ليجيا الى الحديقة – نتمتع الانظار في جمال الازهار ، ومشاهد الطبيعة الفتانة . . .

والتف سكان البيت حول بولس . واخذوا يسألونه اسئلة متنوعة . واستفسروا عن حال بطرس وهل يحظون بزيارة ذلك الصياد الكبير لبلدهم ؟ !

– فاجابهم بولس فيما يتعلق ببطرس قائلا : انني استفقد لزميلي كثيراً ، فحيثما كنت اتوجه اسمع من الناس ان بطرس كان قد سبقني الى ذلك المكان . ويؤسفني اننا لمدة طويلة لم نجتمع في مكان واحد . فلدى وصولي انطاكية قيل لي انه عاد الى اورشليم ، وافادني آخرون انه يجوب ديار الشرق مبشراً وكارزاً بانجيل المسيح . ويسرني ان اخبركم ان المؤمنين في كورنثوس افادوني بان بطرس هو في طريقه الى روما . . .

وشاع السرور بين افراد ذلك البيت لدى سماعهم هذا النبأ المفرح عن احتمال مجيء بطرس الى عاصمة بلادهم . وهتفت پومبنيا قائلة : يا لها من ساعة سعيدة تتيح لنا التحدث الى من عاصر سيدنا وقضى قسماً من حياته برفقته . . .

– واجاب بولس : يطيب لي ان اتلمس ثمار تلك البذور التي بذرها هذا الرسول الجريء الامين في جهات متعددة . فحيثما ذهبت اجد تربة خصبة

لقبول اسم المخلّص الفادي . انا ادرك ان الصعوبات والشدائد ستعترض سبيل من اوقفوا انفسهم على خدمة الانجيل . . . فانا اجد في المسيح قوتي وفخري ، وانا لا استحي بانجيله الذي هو قوة للخلاص . . . ثم تطلع بولس في القائدين الرومانيين وقال مخاطباً سكان الدار : اذا استطعنا ان نربح هذين القائدين للمسيح فاننا نربح عن طريقهما قسماً كبيراً من ابناء هذه الامبراطورية العظيمة .

وتركت ليجيا الغرفة ، وهبطت الحديقة لتنفرد بنفسها ، وتمتع بنجوى هادئة مع خالقها . واذا بها تصادف ماركوس يروح ويجيء في الحديقة . وللحال اقترب منها وجلس على المقعد بجوارها .

– وقال لها : انك يا ليجيا مثال للجمال الخلقي والكمال الانساني . وليتك ترافقيني هذه الليلة الى احدى دور اللهو لنشاهد احدى الحفلات المتعة ، ونصغي الى انغام الموسيقى الساحرة .

– اجابت : ان نفسي لا تتوق لحضور امثال هذه الحفلات .

– قال اذاً عما قريب تشاهدين المهرجان العظيم الذي يواكب دخول فيلقنا المظفر مدينة روما .

– اجابت : ولست براغبة في مشاهدة مواكب النصر ايضاً . . .

– قال : او لا تدركين انه عن طريق الحروب تتحقق وحدة البلاد ويصبح العالم تحت سلطان واحد .

– اجابت : هناك طريقة تفضل بكثير الحروب والفتوحات . انها لا تتطلب سفك الدماء ، واخذ الاسرى ، والالتجاء الى العنف والقسوة . فقد حدثنا قبل قليل زائرنا الكريم عن عالم يتساوى فيه الناس ، ويعيشون في جوّ مشبع بالمحبة الشاملة ، والاخوة الصادقة .

– قال ماركوس : اني اخال ذلك الفيلسوف قد ملأ دماغك بمثل هذه الترهات والاقاصيص ... وعلى الاثر دنا منها محاولاً ان يعانقها ويقبلها ، فنفرت منه ودفعته بعنف عنها .

– وقالت : ابمثل هذه الطريقة يهاجم قائد شهير امرأة ضعيفة ؟ !

– اجاب ماركوس : ولا تنسي يا ليجيا انك رهينة حرب ، وانك اسيرة لدى الرومان ...

وفزعت ليجيا منه ، ولم تشأ ان تبقى في الحديقة منفردة معه . ولذلك هرعت الى داخل الدار لتختبىء منه فلحقها واخذ يعدو في اثرها الى ان اعترضه اورسيوس في الباب عندما شاهدها هاربة منه وقال له : ان واجبي ان احرس هذه الفتاة فكف عن مطاردتها ايها القائد . فعلت ثغر ماركوس ابتسامة صفراوية واجابه بتهكم : ساترك لك ايها المصارع الضخم حماية هذه الحسناء ... !

وترك ماركوس الحديقة ، وتوجه الى غرفته ليستغرق في نوم مملوء بالاحلام الذهبية والاماني العذبة . ووجد زميله لم يستسلم لسلطان

الكرى بعد . ففاجأه فابيوس بقوله : يظهر ان حبك يا ماركوس كان قصير الامد . . !

– اجاب ماركوس : اجل انه تنقصني الاسلحة لاصطياد هذه الحمامة الجميلة الشريدة . . !

اما ليجيا فذهبت الى غرفتها واغلقت باب مخدعها وركعت امام صليب الفادي واخذت تصلي بحرارة قائلة : اغفر لي يا الهي غضبي وحقدي . . . وساعدني في هذه التجربة التي انتصبت امامي . واضرع اليك ايا المصلوب ان تظهر نورك لهذا القائد ، فيشعر هذا المحارب بجبنك ، ويتلمس الخلاص على يدك . . .

الفصل الرابع

دخول ماركوس روما في موكب النصر

كان يوم دخول الفيلق الرابع عشر العائد من ميادين النصر الى العاصمة الرومانية يوماً تاريخياً مشهوداً . فقد اقيمت اقواس النصر في الشوارع وساحات المدينة ، وشيدت المذابح التي ملئت بالوان الضحايا والقرابين استعداداً لرفعها الى الالهة . وغصت الشوارع والطرقات بجموع المتفرجين وعامة الشعب . واصطفت كتائب من الحرس البريتوري على جانبي الطريق للمحافظة على الامن والنظام .

وما اسرع ما رُفعت تماثيل الآلهة التي ملأت الساحات العمومية وباحات القصر الامبراطوري . وزينت الشوارع بالزينات ، واما شرفة القصر فقد كسيت بالارجوان ، ومن تلك الشرفة كان القياصرة يطلون على الشعب ليتقبلوا التحيات منهم وليشهدوا الاحتشادات والمهرجانات المقامة من اجل تكريمهم . ومن تلك الشرفة كان منتظراً ان يتقبل نيرون تحيات الجيش المظفر الذي كان بقيادة ماركوس ، وهو الجيش الذي سلك طريق ابيان اثناء عودته .

وكان ماركوس عندذاك يستعد ليسير على رأس ذلك الفيلق المنتصر في شوارع العاصمة بعد ان اجتاز بجنوده طريق ابيان التاريخية الشهيرة .

واستعاد ماركوس في تلك اللحظة ذكرى تقلب الشعب الروماني وعدم اتزان الغوغاء ، اذ كثيراً ما كان القياصرة يخشون تقلب الشعب الفجائي وتمرده غير المنتظر ، لذلك كانوا يحسبون الحساب لتلك المفاجآت ، ويشددون الرقابة ويكثرون من الحراس . ولم يكونوا متأكدين من نوع الاستقبال الذي سيقابلهم به الشعب فاما ان يكون مقروناً برشق الحجارة والضرب واما مصحوباً بالهتافات ونثر الازهار والرياحين .

ولا بدّ ان يكون ماركوس قد حسب حسابه لهذا التقلب المتوقع من عامة الشعب والمنتظر حدوثه عند الغوغاء . لان الجماهير غدت تقدس نيرون وتعبده في هذه الآونة في حين انها قبل فترة قليلة من الزمن كانت تقدس اكتافيا التي غدر بها هذا الطاغية . ولم يكن هذا غريباً على ماركوس اذ كانت هذه المشاهد مألوفة لدى كل روماني عاش في ذلك الجو وتحت تلك الاحكام . وكان لا بدّ لروما ان تشهد في احتفالاتها العامة هذه خليطاً من الناس ، فقد كنت ترى الغالي والجرماني والبريطاني يمتزجون مع سكان وادي النيل والفرات . . .

وجاءت الساعة التي حدّدت لسير هذا الموكب الحافل . فسار في الطليعة عدد من كهنة سيرابيس يرفعون سعف النخيل في ايديهم ، ثم تبعهم كهنة ازيس الحاملين القرابين والتقدمات الى الهيكل المقدس . وسار في إثرهم رهط من الراقصين والراقصات والضاربين على الطبول والعازفين على الآلات الموسيقية . . . وتتأججت النيران فوق مذابح الآلهة ، وتصاعدت ألسنة اللهيب من فوق كل مذبح استعداداً لشواء الذبائح والتهام الضحايا . وشوهدت جماعة من الجزارين المفتولي العضلات

يحملون السكاكين الحادة في ايديهم ويسوقون قطعاناً من الخرفان المزينة بالازهار واكاليل الغار الى الذبح لتقدم كقرابين الآلهة التي لا ترضيها الا الدماء المهراقة واللحوم المشوية . . . !

وسار الموكب بانتظام ، وقد بدأ الكهنة ينشدون اناشيدهم الدينية ، ويؤرجحون مباخرهم الملأى بالبخور والروائح العطرة . وسرت في ركابهم الجواري اللواتي كنّ يرقصن على وقع الآلات الموسيقية ، ويأتين بحركات ايقاعية مثيرة ، ويرتلن باصوات عذبة رقيقة . وتصاعدت بين الفينة والاخرى هتافات العامة التي شقت عنان الفضاء وتعالت الى السماء داعية بحياة نيرون وخلود امبراطوريتهم العظيمة .

واسترعى انتباه الناس مشهد رئيسة عذارى الآلهة ڤستا فقد ظهرت روبيكا هذه برداتها الابيض بالقرب من المذبح المنتصب على مرأى من الجماهير وعندما رفعت هذه ذراعيها خيم صمت على الموكب ، واصبحت الآذان تصغي الى نداتها . وما اسرع ما بدأت تدوي بصوتها القوي ، وتنادي بعبارات واضحة مستجدية الآلهة لكي تتقبل ادعيتها وهتفت : يا الهة روما العظيمة – ويا حامية هذه الامبراطورية التي تسود العالم اسمعينا . . . اننا نضرع اليك ان تصوني امبراطورنا وبلادنا . . . اننا نعبدك . . . ورددت الجماهير على الاثر كلمات القرار : نحن نعبدك . . .

وما هي الا بضع لحظات حتى استلت روبيكا خنجرها وغمسته في قلوب الخراف المعدّة للذبح . . . ثم صرخت يا ڤينس – الهة الحب – اننا

تعبدك ... ومع شخير الحيوانات الذبيحة ، وسيل دمائها ردّد الشعب كلمات القرار المألوفة : نحن نعبدك ...!

وسار الفيلق الرابع عشر بقيادة ماركوس خلف موكب الكهنة والراقصات . وانعكست اشعة الشمس على اسلحة الجيش المجلية ، ذلك الجيش المزوّد بالعربات النحاسية ، والدروع الفولاذية ، والسيوف الحادة. واقتربوا من قصر الامبراطور وكلهم ينتظر الاوامر من سيد البلاد ... واعادت روبيكا النداء قائلة : يا جوبتر رب الارباب ويا نيرون ابن الالهة ... ولم يصطبر الشعب حتى تتم النداء فاذ به يهتف عالياً : نحن نعبدكما ...

كان هذا يحدث خارج القصر وفي الشوارع العامة ، اما في الداخل فكنت ترى نيرون مستغرقاً في لهوه وتسلياته ، ومنصرفاً الى عزفه وغنائه . فهو تارة يتلهى بغازلة پومپيا – المرأة المطلقة الفاتنة التي تزوجها بعد ان غدر بزوجته الشرعية ، وطوراً آخر كان يوقع على قيثارته انغاماً تابية ، ويخرج الحاناً غير موزونة . ويهز رأسه عندما يرى ندماءه يشايعونه في مسراته ويثنون على براعته في العزف والغناء ، ويكيلون له المديح كيلاً بدون حساب ، مع انه كان في وادٍ والفن في وادٍ آخر .

وخفّ اليه مستشاره بترونيوس وهمس في اذنه قائلاً : ان الشعب لفي انتظارك ، وها هم يحيونك من الخارج ويودون منك ان تظهر

صورة نيرون وهو مستغرق في لهوه ويعزف على قيثارته الانغام النابية

على الشرفة وترد التحية اليهم ... هم مشتاقون لرؤيتك . فاجابه نيرون : ولماذا يود هؤلاء ان يحرموني من تسلياتي ومتعي الخاصة فانا ارغب ان امتع نفسي بالموسيقى ، وان ارفه عن حياتي بعشرة هؤلاء الفاتنات .

– وتقدم اليه احد الندماء وقال : لكنك يا صاحب الجلالة تشبه الشمس في كبد السماء وهل ترضى الشمس بان تحجب انوارها عن هذا الوجود .

– قال نيرون : ولكنّ للشمس ليلًا ... ولا ينتظر مني ان اظل مشرقاً طيلة ساعات حياتي ! وعلى من اشرق بنوري ؟ ! أعلى هذا الشعب القذر ، والجماهير النتنة ... او تريدون مني في مثل هذا اليوم

القائظ ان امتزج بالغوغاء ! ان الحرارة تكاد تحرقني والانفاس النتنة لا بدّ ان تفسد الهواء عليّ ! ان هذا الشعب ليطلب الشيء الكثير مني اذ هم يزعجونني ويقلقون راحتي لذلك اصبحت اكرههم كما غدوت اكره عاصمتهم ... وكثيراً ما فكرت في هجر هذه المدينة ، والنزوح الى الريف لولا ان ظروف الحكم تضطرني ان ابقى في العاصمة التي اصبحت اكرهها وامقتها ...

– وتدخل تيجيليوس رئيس الحرس في المسألة عساه ينقذ الامبراطور من مأزقه فسأله : ما هي ارادتك السنية يا صاحب الجلالة لانفذها لك ؟

– اجاب نيرون : ان هؤلاء الغوغاء يزعجونني وهل خلقوا فقط لازعاجي ؟ !

– قال له تيجيليوس : انهم رعاياك ولا بدّ للامبراطور من رعية يحكمها ... فاصدر فقط اوامرك عندئذ ترى كيف ننفذ هذه الاوامر بسرعة . واذا كنت لا ترغب في مخاطبة الشعب فأنب عنك مستشارك بترونيوس فهو يعرف كيف يتدبر في الامر ويتحدث الى هذه الجموع .

ونهض فجأة نيرون الهواني المتقلب واضعاً اكليلاً من الغار على رأسه ونادى مستشاريه وقواده والامبراطورة ورجال بلاطه ليرافقوه الى الشرفة . وكان الشعب يلح في طلب رؤية عاهل الامبراطورية . وعندما بان في الشرفة دوّت الهتافات بحياته . واجال نيرون نظره في الجموع المحتشدة ، واخذ يتفرس في تلك الجماهير التي ملأت ساحات القصر وكان التاج يتراقص على رأسه ، وقد بدا الامبراطور الخليع فاقد

الاثران خصوصاً بعد ان سمع هذه الهتافات وكلمات الاطراء المتعالية والمتكررة .

وشوهد في تلك الفترة بين الجموع رجل تبدو عليه علامات الوقار والجلال . انه كان يحمل عكازاً بيمينه ، وعيناه امتلأتا بنور الرجاء . كان هذا الرجل الغريب الرسول بطرس الذي جاء روما ليزور الاخوة وجماعات المؤمنين . انه قطع المسافات الطويلة كي ينفذ وصية سيده بحمل بشارة الانجيل الى العالم اجمع . وكانت بقربه امرأة لم ترق لها هذه الهتافات فاخذت تنتقدها بهمساتها . وسمعها بطرس تقول لزوجها : ما اسخف هذا الشعب ! انه يهتف بحياة وحش ضار غدر بزوجته وبوالدته ! وطلب منها زوجها ان تصمت خشية ان يسمعها أحد فيشي بها الى السلطات فيزجونها في غياهب السجون ...

وسمعها الرسول بطرس فقال لها : مسكين هذا الرجل فانه مريض في قلبه وروحه . وليس انسان خلق على صورة الله ومثاله بحيوان ... ولم يدر بخلد احد من الناس عندذاك انّ في كلام بطرس تتجسم قوة المسيح التي زحزحت العروش وغيّرت معالم الدنيا باسرها ...

واخيراً اعطى نيرون اشارته فاذا الموكب يواصل سيره ، والموسيقى تصدح ، والطبول تقرع . وشوهد ماركوس يسير على رأس فيلقه وهو يتأمل ويفكر ، وكانت الفتيات تملأن الطرقات وهنّ ينثرن الزهور من سلالهم المملوءة بالورود والرياحين . ورانت من القائد التفاتة الى احدى الفتيات اللواتي كنّ ينثرن الازهار فخالها ليجيا . فرقص قلبه فرحاً ،

الا ان امله خاب عندما تحقق ان تلك لم تكن عروس احلامه ... ثم عاد فعبس وقطب . وعندما وصل الشرفة التي وقف عليها نيرون رفع يمينه محيياً الامبراطور . وكانت فتاة مقنعة تسير على مقربة منه وتتمتم ببعض الكلمات بصوت خافت قائلة : تذكر يا هذا انك انسان ! وكأنها قصدت ان تصل هذه الهمسات الى اذني القائد المظفر العظيم فتذكره بزوال الحياة وبعدم دوام هذه المظاهر الزائفة .

والتفت نيرون الى العصبة التي احاطت به وقال انظروا الى هؤلاء الابطال كيف يخترقون شوارع روما وسيماء النصر تبدو على وجوههم . انهم ابناؤنا الشجعان - انهم ابطال روما الاشاوس - هؤلاء لا يقهرون وجدير بنا ان نحبهم وان نخلد ذكراهم ...

الفصل الخامس

لبجا تنقل الى القصر الامبراطوري

وعندما انتهى الاستعراض ، وفرغ الموكب من تطوافه ، عاد القائد ماركوس بصحبة خاله بترونيوس ليمكث معه بضعة ايام في داره الريفية قبل ان يتوجه الى موطنه في صقلية . وكان ماركوس جدّ مشتاق ان يرى مسقط رأسه ، ويشاهد ممتلكاته ومرابع فتوته ، واماكن ذكريات عهد طفوليته . وشعر بترونيوس انه في حاجة ماسة الى الراحة لا سيما وان مسؤوليات الادارة كانت تستنزف نشاطه وتؤثر على صحته .

وجلس بترونيوس في شرفة داره الريفية ، وامامه مائدة ملأى باصناف الفاكهة . فتناول رمانة بين اصابعه واخذ يقلبها ويتأمل في شكلها ثم قال هذه جاءتنا من قرطاجنة . . . وبعد ذاك تناول عنقوداً من العنب وتذوق حباته واعقب قائلاً : وهذا جاءنا من بلاد الاغريق . . . وها هي فاكهة الدنيا تجتمع في روما - ولا مشاحة فروما سيدة العالم ، وعاصمة الدنيا ، واليها تشحن الاثمار اللذيذة ، والمأكولات الشهية .

واخذ بترونيوس ينتظر مجيء ماركوس الذي تخلف عنه لقضاء بعض حاجاته ، وتنظيم شؤون جنوده . وخاطب صاحب الدار رئيس الخدم قائلاً : دلّ ماركوس على مكاني ، وعندما يحضر اجلب له تلك الجارية الجميلة التي استحضرناها من اسبانيا ... فماركوس القائد العظيم والفاتح للامصار والبلدان لا بدّ ان يكون قد مهر ايضاً بفتح قلوب الحسان ...

ودخل ماركوس الدار وهو يرتدي ملابسه العسكرية ، فالاوسمة كانت تزين صدره ، والخوذة النحاسية تغطي رأسه ، والسيف يتلألأ على خاصرته ، والقوة تتجلى في عضلاته ، والحيوية تشيع في كيانه وحياه على الاثر بترونيوس قائلاً : اهلاً بزينة الشباب ، وبقائد جيوشنا المظفرة . فانت بطل الساعة يا ماركوس ومفخرة البلاد . واعتقد ان نيرون سيكافئك على اعمالك الجبّارة التي حققتها للامبراطورية ، فيوليك ادارة احدى الولايات ...

وشكر ماركوس الحفاوة التي استقبله بها خاله . وقال انني قد تعبت كثيراً هذا اليوم ، وقد كان مكان الاستعراض شبه الجحيم من شدة الحرارة ... فدعاه خاله ليتناول بعض المرطبات عساها تخفف عنه متاعب النهار . ثم ناوله بعضاً من تلك الفاكهة اللذيذة التي جلبها له من الكروم والحدائق المجاورة للجبل المقدس . وقال له وهو يناوله عنقوداً من العنب الشهي : انا لا اعتقد ان عنب صقلية اشهى من هذا العنب الذي ينمو بالقرب من جبل اولمبس .

واخذ ماركوس يستمرىء طعم تلك الفواكه اللذيذة . ثم سأل خاله عما ينص عليه القانون الروماني بخصوص الرهائن ؟ فربت بترونيوس على كتفه وقال : لا تفكر في المسائل القانونية الآن ... وان كنت ترغب في الحصول على احدى الرهائن فلدي جارية جميلة جلبتها لك من اسبانيا وسوف اضعها تحت تصرفك .

وعلى الاثر نادى بترونيوس رئيس خدامه وامره ان يحضر الجارية ... وللحال جاءت ووقفت امامهما . واخذ بترونيوس يستعرضها من الخلف ومن الامام ليثير عاطفة ماركوس ويفتنه بجمالها ، وبرشاقة جسمها وقوامها . وبعد ان فرغ من هذا الاستعراض امر بترونيوس رئيس الخدم ان يعيد الجارية الى غرفتها قائلًا : انها الآن ملكك يا ماركوس. وتمتمت الجارية بصوت خافت قائلة : يا سيدي انني لا اريد ان اذهب مع احد سواك لاني اود البقاء عندك ... وفي وسعك ان تسيمني اشدّ صنوف العذاب انما رجائي ان لا تبعدني عنك ...

وسمع ماركوس همسات الجارية فقال لها : اطمئني بالاً فانا لا اريد اخذك ، وفي وسعك البقاء حيث تشتهين . وتأثر بترونيوس من تصريح ماركوس هذا وقال له : هل أثرت عليك كلمات هذه الجارية ... سوف تنال عقابها على جرأتها هذه . اما انا فقد آثرتها على ستة من اجود الخيول ، واحتفظت بها لاقدمها اليك على اثر عودتك من ميادين الحروب ... وللحال امر بترونيوس رئيس الخدم ان يوقع على ظهر الفتاة خمس جلدات شديدة عقاباً لها على قحتها وجرأتها في الكلام .

وظلّ ماركوس مصراً على رأيه في عدم اخذ هذه الجارية مصرحاً بانه يرغب في الحصول على تلك الفتاة التي رآها في بيت باوتس .

– وسأله خاله : ومن تكون تلك الفاتنة التي نالت حظوة في عينيك .

– اجاب : هي احدى رهائن الحرب وتدعى ليجيا .

فطمأنه بترونيوس بانه يسهل عليه الحصول عليها ، اذ ان جميع الرهائن هي ملك للدولة . وما دام الامبراطور راضياً عن اعماله فمن السهل الحصول عليها . وعلق ماركوس على كلام خاله بقوله : كان الامبراطور عازماً ان يقدم لي ولاية مصر مكافأة على اعمال البطولة التي قمت بها ، وها انا اوثر ان يحتفظ جلالته بمصر شريطة ان يهبني ليجيا ...

وصمت بترونيوس قليلاً ثم قال : اخشى ان يكون اخذ ليجيا لا يطيب لباوتس ، لان هذا القائد المتقاعد يدعي ان ليجيا هي ابنته المتبناة ... فيا له من فيلسوف غبي ..! فامثال هؤلاء الفتيات قد خلقن للمتعة ..! وها هي الجارية الاسبانية التي استعرضتها امامك قد نالت جزاءها ، ولا بدّ ان تكون قد استمعت الى وقع السياط على ظهرها ... ورانت من ماركوس التفاتة الى الغرفة المجاورة فاذا الجارية تعانق تمثال بترونيوس وتظهر اليه تعلقها الشديد بصاحبه ، ومحبتها العظيمة له .

اما ليجيا فانها بعد ان انتهت من حضور موكب الاستعراض ، أخذت تشعر بانقباض في نفسها فآبت الى البيت حزينة ومنكمشة .

لقد آلمتها مشاهد العظمة الفارغة ، والابهة الزائفة فانزوت في مخدعها تتأمل في تلك الرموز التي غشت جدران غرفتها . فشاهدت الصليب الذي هو رمز الآلام والاحتمال ، والسمكة التي كانت شعار المسيحيين عندذاك ، فارتسمت في مخيلتها مبادىء المسيحية الرفيعة ، ومُثلها السامية ...

وفيما هي غارقة في تأملاتها اذا قرع عنيف على الباب يعكر عليها صفوها . وسُمع صوت يدوي قائلًا : باسم الامبراطور نأمركم ان تفتحوا الابواب ... واستجيب الامر للحال وظهر احد ضباط الحرس البريتوري وقال : باسم نيرون ندعوكم ان تسلمونا الفتاة الليجية التي في هذا المنزل . ووقفت پومپينا مشدوهة امام الضابط وقالت : لكنّ ليجيا ليست من رهائن الحرب كما ظن صاحب الجلالة بل هي ابنتنا المتبنّاة ... ورُوعت ليجيا لدى سماعها الامر الامبراطوري الصادر باستدعائها الى القصر . والتصقت بپومپينا مرددة الكلمات التالية : اماه ... اماه ... لا تتركيني ... !

واجتمع الخدام حول ذلك المشهد المثير واضطرب سكان المنزل لهذه المفاجاءة غير المنتظرة . اما الضابط فظل مصراً على تنفيذ اوامر الامبراطور . ولما تأكد الجميع انه لا مفرّ من تسليم ليجيا اخذتها پومپينا الى غرفتها وقالت لها : سأزودك برسالة الى احدى سيدات البلاط لتستأنسي بها ، ولتجدي عطفاً منها ، لانها من السيدات المؤمنات

اللواتي كنّ يحضرن اجتماعاتنا عندما كنا نعقدها في السراديب بحضور احد رسل المسيح . وكثيراً ما كنا نلمس في هذه السيدة ميلاً شديداً لمطالعة رسائل بولس الرسول ، او سماع مواعظ بطرس – تلميذ السيد المسيح .

وسارت ليجيا مرغمة برفقة الضابط الى القصر الامبراطوري وقد تركت ذلك المنزل الذي احبته ووجدت فيه حسن المعاملة والعطف الابوي . ولحسن الحظ ان بلاوتس كان متغيباً عندذاك عن المنزل ، لانه لو كان حاضراً فلربما وقع اصطدام بينه وبين الضابط الذي انيط به اقتياد الفتاة الى القصر الامبراطوري .

ووُضعت ليجيا في احدى الغرف بانتظار مجيء المسؤولة عن ذلك الجناح . ولم تكن تلك سوى اكتي – السيدة التي اوصت بها پومبينا . وظلت ليجيا في انتظار اوامر نيرون مترقبة ما سيحمله لها الغد المجهول ...

الفصل السادس

ليجيا تلتقي بماركوس في بلاط نيرون

كان نيرون بعد ان غدر بزوجته اكتافيا ، وبوالدته اغريبا قد وقع في اشراك حب احدى الفاتنات اللواتي ملأن قاعات قصره ، اذ تزوج بپوپايا التي جعلها شريكة لحياته وامبراطورة تشاطره اعباء حكمه . وكان نيرون في الوقت ذاته يحب فتاة اخرى اقامها مديرة على الجناح المختص بالنساء في القصر الامبراطوري ليكون دوماً قريباً منها . وكانت الفتاة التي اسند اليها نيرون امر ادارة الجناح النسائي موالية بالامبراطور ومغرمة به ، ولم تتحرك عوامل الغيرة في قلب پوپايا لانها اعتبرت اكتي كباقي المستخدمات في القصر ولم تلحظ ان لها تأثيراً كبيراً على نيرون .

وعندما جيء بليجيا الى القصر استقبلتها اكتي وقادتها الى الجناح المخصص للنساء . وما اسرع ما جذبها جمالها ، ورشاقة قامتها ، وسحر عينيها ، فاخذت تتميّزها وتتفحصها .

– ثم سألتها : هل انت تلك الرهينة التي أُخبرت عنها .

– اجابت ليجيا وكان التعب بادياً عليها : بالايجاب ...

– ثم قالت اكتي : انا هي المسؤولة عن هذا المكان – ومهمتي هي الاشراف عن هذا القصر ...

– ولمست ليجيا فيها عطفاً ورقة فتجاسرت بان تسألها قائلة : أتستطيعين ان تخبريني عن سبب جلبي الى هذا المكان ؟ !

– اجابت اكتي : اخالك نلت اعجاب الامبراطور ، ومن اجل ذلك دعاك الى حضور الحفلة التي ستقام الليلة في هذا القصر .

– قالت ليجيا باستغراب : بيد ان الامبراطور لم يرني أبداً ، ولا بدّ ان يكون وراء الغيوم ما وراءها ... !

– اجابت اكتي : هذا عين ما حدث لي قبل سبعة عشر عاماً عندما جُلبت الى هذا القصر ، فلم اكن لاعرف السبب في استدعائي بيد انه كان من حسن طالعي ان حظيت مع مرور الزمن بالتقرب من سيد البلاد ، وها انا الآن جدّ سعيدة لاكون في رعاية هذا الامبراطور الذي يحكم اجزاء هذا العالم الواسع .

وتقدمت على الاثر جاريتان نوبيتان لتكونا على استعداد لتنفيذ أوامر سيدة القصر ، ولدى مشاهدتهما ليجيا سُحرن بحسنها وبجمالها . وللحال امرتهما اكتي ان تعدا الحمام الساخن ، وتملآنه بالطيوب ، وتهيئا الملابس التي تليق بهذه الفتنة التي ستقابل الامبراطور . فنزعا ثيابها واخذاها الى الحمام ، ثم وضعا عليها رداء ازرق كان قد جُلب من بلاد فارس ، فبانت ليجيا فتنة تسبي العقول بجمالها وسحرها .

وخضعت ليجيا للاوامر ، ونفذت جميع ما أمرت به . وكانت عيناها تدمعان وظلت ترمق اكتي بنظرات استعطاف .

– فقالت لها اكتي : علمت انك انت الفتاة التي تربيت في بيت بلوتوس وفي رعاية زوجته ...

– وسألتها ليجيا مستغربة : وهل تعرفين ذلك البيت ؟!

وقطع عليهما الحديث دخول الماشطة التي جاءت لتمشط الشعر لليجيا وتضفره وتدهنه بالطيوب وتملأه بالعطور ...

– وبعد الانتهاء من عملية التجميل قالت لها اكتي : انت الآن ضيفة القصر ، ورهينة سيد العالم ... واني انصحك الا تحاولي مقاومة ارادة السلطان فان اية مقاومة تكون ضرباً من الحماقة ... واخذت اكتي تدهن وجه ليجيا بالزيوت المعطرة ، وتخضبه بالطيوب العربية ثم ألبستها صدرية ذهبية اللون ، ووضعت في رجليها حذاء ابيض مزخرفاً بالارجوان ، وزينت جيدها بعقد من اللؤلؤ ، ثم رشت شعرها بغبار الذهب .

وعلى الاثر اقتادتها في دهليز يؤدي الى قاعة الولائم ، وتطلعت ليجيا حولها فاضطربت لانها خالت نفسها تقاد الى ساحة الموت . ونادت اكتي احد الحراس وقالت : هذه هي الرهينة التي استدعاها الامبراطور . والتفتت ليجيا الى اكتي وقالت : لا تتركيني وحدي بل رافقيني ... ولكن اكتي اعتذرت قائلة : ان الامبراطور لم يدعني واظنه لا يرغب ان اكون حاضرة في تلك الحفلة ...

ودخلت ليجيا الى غرفة واسعة كانت تتجاوب فيها الآلات الموسيقية المتنوعة . واشار الجندي اليها ان تجلس على مقعد لا يبعد كثيراً عن عرش نيرون . واجالت ليجيا ببصرها الى ما حولها فاذا الامبراطور يجلس على الطنافس المخملية يحيط به ندماؤه ومستشاروه ، وامامهم الموائد التي حوت اشهى الاطعمة واخر اصناف المشروبات وعلى مقربة منه جلس القواد والنبلاء وسفراء الدول . وانتشرت الجواري في القاعة استعداداً للخدمة ، ووقفت العازفات والراقصات على اهبة الاستعداد لتمثيل ادوارهن ، ولادخال البهجة الى قلوب الضيوف والمدعوين متى طلب منهن ذلك .

وما هي الا بضع دقائق حتى عزفت الموسيقى ، وابتدأ الرقص واخذت ليجيا تتأمل في هذه المشاهد الخليعة ، وفيما هي مستغرقة في التفكير العميق بهذه الامور النابية اذا بماركوس يقترب منها ويبتسم لها . اما هي فاطرقت حياء ، ولم تنبس ببنت شفة خشية ان تثير احساساته ، وتهيج عواطفه .

– اما هو فدنا منها وقال : ها قد جلبتك الى هذه القاعة بمنتهى الاكرام افلا استحق ابتسامة منك ؟ !

– اجابته : لا تنسَ ايها القائد العظيم والفاتح الشهير انك استخدمت ثلة من جنودك لجلبي الى هذا المكان .

– اجاب ماركوس : وهل تجهلين ان البضاعة الجيدة تستدعي دائماً حراسة قوية . ولا اخالك الا مسرورة لوجودك هنا اذ ان الكثيرات

يحسدنك على هذا الامتياز . وظلت ليجيا صامتة ، وحاولت ان تخفي وجهها لكي لا ترى تلك المشاهد الاباحية المثيرة غير ان ماركوس تابع قوله : اوَ لم يخبرك معلمك بولس شيئاً عن هذه المشاهد والافراح ؟ ! اني اخاله قد حبّب اليك سكنى الكهوف والاعتزال مع النسّاك والابتعاد عن مسرات ومباهج هذا العالم ... ! ليتك شاهدت موكب النصر الذي واكبني ساعة دخلت مع فيلقي مدينة روما ، فقد حفل النهار بمواكب المجد والفخار ، وكانت الاعلام تخفق في كل مكان . واني اصرح اليك انني وسط هذا الموكب الحافل بالوان النصر بقيت اتطلع اليك واهفو لمشاهدتك ...

– ولا تظنين يا ليجيا انني اله حرب وبلا قلب ... فانا لا اهاجم قلبك كما اهاجم الحصون المنيعة والاسوار الضخمة ...

– وقاطعته ليجيا بشهقة بكاء ، وبنحيب أليم قائلة : لا اريد شيئاً من مسرات الدنيا كلها . اني اتوق ان يطلق سراحي وان يسمح لي بالعودة الى بيتي .

* * *

ودوّت الهتافات في القاعة : ليحيا قيصر – ليحيا نيرون . ودخل نيرون وهو يترنح ذات اليمين وذات الشمال . ووقف الجميع اجلالاً لذلك الشبح المخيف ، وظلوا واقفين الى ان امرهم نيرون ان يجلسوا . ثم حُرقت كميات من البخور ورشت العطور ليعبق الجو بالروائح الزكية .

صورة ليجيا وهي تتطلع بازدراء الى مشاهد الخلاعة والفجور

ونثرت الازهار على ارض الغرفة . واخـذت الطبول تقرع ، والموسيقى تصدح والراقصات يقمن بحركات مهيّجة مثيرة . وساد المكان الوان من الهرج والمرج والفتنة والاغراء . ووسط كل هذا كنت ترى ليجيا تنقبض وتنكمش ، وتتمنى لو ان صاعقة انقضت على المكان فقتلت جميع العابثين ، وحشود المجتمعين الفاسقين .

وبعد ان استوى نيرون على عرشه اخـذ يتفرس في الجموع واضعاً نظارة خضراء على عينيه ليرى الحضور عن طريق عدسة نظّارته الخضراء . ورانت منه التفاتة الى ليجيا فرآهـا تجلس بالقرب من ماركوس فعرف

انها هي الرهينة التي طلبها منه القائد الاعظم . وهمس في اذن مستشاره بعد ان تفحصها قائلاً : يظهر ان ماركوس عرف كيف يختار الفتيات الجميلات ... انها بالحقيقة على جانب كبير من الجمال بيد انه لو كان خصرها اوسع قليلاً لاخذتها لنفسي ...

ثم جلس ليصغي الى الموسيقى ويمتع نظره بالرقص الخليع . واخذ يحتسي كاسات الخمر ، ويهزّ رأسه ويغني غناء مجرداً عن كل لحن موسيقي . وكان الناس حوله يتسلقونه بالاصغاء الى غنائه ، ويقلدونه في حركاته وضروب الخلاعة ... وسمعه الناس يقول : لا يتم سروري ولن يتكامل فني الا اذا شهدت هذه المدينة تحترق ... فعما قريب ينتهي الربيع ، ويداهمنا الصيف بحرارته اللاذعة فتنتشر الروائح الفاسدة وتملأ جوانب هذه المدينة الموبوءة . بيد انني عندما انقل بلاطي الى مدينة انتيوم فعندذاك يتكامل فني ، ويستقيم انشادي ، وتنسجم موسيقاي ...

* * *

وكان الناس في تلك الفترة يشاهدون مصارعة عنيفة بين زنجي وأحد المصارعين الهواة . وما هي الا بعض دقائق حتى قبض المصارع على الزنجي بيد من حديد ، واسال الدم من فمه ، وأراد أن يطبق عليه فيميته لولا انه انتظر اشارةً من الامبراطور لينال موافقته للقضاء على ذلك الزنجي المسكين . والتفت الامبراطور الى هذا المشهد واعطى

الاشارة بالموافقة عن طريق رفع ابهام. فابتهجت الجماهير المتحجرة القلوب لرؤية حياة ذلك البائس تطوى على مرأى منهم .

ثم نهض نيرون واخذ يتجول في انحاء القاعة فمرّ بماركوس وشاهده يجلس بقرب ليجيا وقال له : اظنك قد اغتبطت بهذه الرهينة التي وهبتك اياها ... وخاطب ليجيا قائلاً : قد وهبتك لهذا القائد الباسل مكافأة له على خدماته الكثيرة واخلاصه غير المتناهي . ومنذ الآن ستلتحقين بماركوس ولا تكونن لك ثمة علاقة باسرة القائد بلوتوس ...

– والتفت ماركوس الى ليجيا بعد ان ابتعد الامبراطور عنهما وقال : الآن تدركين موقفك تماماً فانت الآن ملكي ، اذ وهبني اياك حاكم البلاد . فلا ضرورة للعبوس – ودعينا نتبادل الحب لان الحب هو الحياة .

– اجابته : وما يهمك من الحب ما دمت انا رهينة لك ... فما عليك ايها القائد الا ان تأمر فانصاع بدوري لاوامرك !

وحزّ في قلب ماركوس ان يرى ليجيا تجافيه وتنفر منه . وانذرها بانها اذا استمرت على هذا الجفاء فانه يحملها الى بيته قسراً ويتصرف بها كيفما شاء . لكنها قالت له : اعمل ما بدا لك ... وتصرف بي مثلما تريد ... اما انا فسأظل اواظب على الصلاة من اجلك ...

وجاء رسول من الامبراطورة يستدعي ماركوس بان يمثل بين يديها . فنادى ماركوس احد الجنود وقال له : خذ هذه الفتاة الى

بيت بترونيوس وسلمها لرئيس الحرّاس هناك . ومن ثم توجه ماركوس ليقابل الامبراطورة التي بعثت تستدعيه .

وانحنى القائد العظيم بين يدي الامبراطورة ، وبعد التحية امرته بالجلوس ثم قالت له يظهر انك وجدت صعوبة في اثبات ملكيتك لهذه الفتاة . فالقتال بين رجل وامرأة مدعاة لاضاعة الوقت ولاستنزاف الحيوية والنشاط . واخذت تستدرجه في الحديث عساها تستميله اليها ، وتغريه بجمالها وتوقعه في حبائلها .

اما ليجيا فعرجت في طريقها على اكتي التي استقبلتها ببشاشة وزودتها ببعض النصائح والارشادات . وشاهدتها ترسم شكل السمكة فادركت اكتي ان هذا هو شعار المسيحيين . فقالت لها : تشجعي يا ليجيا فان لديك اعظم قوة في العالم . وظلت ترافقها بنظراتها وهي سائرة بصحبة الجندي . واطلت من النافذة لتزودها بنظرة اخيرة ورسمت لها اشارة الصليب لتضعها في حماية المخلص الحبيب ...

الفصل السابع

مقابلة ماركوس لبيلو

آب بلوتوس الى داره وحزن كثيراً عندما عرف ان ليجيا قد أُخذت من بيتهم قسراً . وظل قلق البال مترقباً انتهاء الحفلة التي اقامها نيرون ليعرف شيئاً عن مصير ليجيا . ولذلك بقي يذرع ارض غرفته وامارات الاضطراب بادية على محياه . وتقدمت زوجته طالبة منه ان يأوي الى فراشه ، ويستكين الى الراحة .

وفجأة سُمع قرع شديد على الباب وعلى الاثر جاءت الخادمة تنبيء بدخول احد الضباط . ورأت منهم التفاتة الى النافذة فاذا عربة القائد ماركوس بالباب واحد الجنود يمسك اعنة الخيول . ودخل ماركوس بدون استئذان وقال : قد جئت لافتش عن ليجيا . . . فاخبروني أين هي ؟ !

– اجاب بلوتوس : اننا لم نرَ ليجيا منذ الساعة التي اخذتموها من عندنا وحملتموها الى قصر الامبراطور .

– قال ماركوس : لقد حملها ثلاثة من اتباعكم بينهم ذلك المصارع القوي اورسيوس . واعتقد انهم اخبأوها عندكم – فاظهروها حالاً وسريعاً . . .

- اجاب بلوتوس : لكننا لا نعرف مقرها وهي لم تحضر الى هنا -

- قال ماركوس : انت تكذب ايها القائد ...

- وقاطعه بلوتوس قائلاً : لم اعتد الكذب يا ماركوس ... واني اقسم لك بشرفي انني لا اعرف مكان ليجيا . وفي وسعك ان تفتش البيت كله لتتأكد من صدق كلامي !

- قال ماركوس : ولا تنسَ يا بلوتوس ان الامبراطور وهبني ليجيا فهي تخصني ، وقد اصبحت ملكاً لي ...

●

وتأثر بلوتوس لدى سماعه هذا الخبر وقال : ما اقسى هذه القوانين التي تسود روما ! وما افظع هذا الحاكم الذي يُصدر مثل هذه الاحكام الجائرة ! ألا يكفي نيرون انه غارق في ملاهيه وفساده ؟ ! او يريد ان يتصرف بمقدرات الناس كما يشاء ؟ ! وللحال اقتربت زوجته منه وربتت على كتفه وطلبت منه ان يرفق في الحديث خشية ان يصل ما يتفوه به في سورة هياجه الى مسامع الامبراطور ..

وحاول ماركوس ان يترك البيت متأثراً من عدم اهتدائه على من جاء يسعى من اجلها . فاقتربت منه بومبينا وقالت : انا نعرف انك تحب ليجيا وتهواها ، وانك قد اصبحت اسير حبها وجمالها ، وكل ما نرجوه لك ان تحظى بعروس احلامك ، وان تتحقق لك هذه الاماني المرجوّة .

وركب ماركوس عربته التي اقلته الى ڤيلا بترونيوس . واخذ

يلهب ظهور خيوله بسياطه ليصل بسرعة الى دار خاله . وحالما وصل الفيلا دخل على بترونيوس فوجده يتناول طعامه . ولاحظ بترونيوس الاضطراب البادي على وجه ماركوس فحاول ان يسري عنه ، ويخفف من اضطرابه فأخذ يسليه بانواع الحديث ، داعياً اياه ان يتناول الطعام الشهي معه ومن ثمّ يرافقه الى انتيوم حيث المناظر الطبيعية الفتانة التي تنسيه جميع همومه . وختم حديثه بقوله : لا تجعل حب هذه الفتاة ينغص عليك مسالك عيشك فليجيا رهينة حب ، وهي لا تعدو اكثر من فتاة مشردة !

– اجاب : لكنني اهواها يا بترونيوس – ولا ارى للحياة معنى بدونها . ثم استسلم الى فترة من التفكير والتأمل . وبعدها قال : الاحظ شيئاً غريباً في تصرفات بلوتوس واهل بيته . فهم يختلفون عن باقي الرومانيين في احاديثهم وتصرفاتهم مع انهم من سكان روما الاقحاح . . . وقد لاحظت ان رجلاً غريباً اخذ يتردد عليهم ولقد قيل لي انه من مدينة طرسوس وان اسمه بولس . فهل تعرف عنه شيئاً يا بترونيوس ؟

– اجاب : ان بولس فيلسوف احمق ، وهو يتجول في اجزاء الامبراطورية مبشراً باسم المسيح . وقد حكم عليه نيرون بالنفي . ويخيل اليّ ان اسرة بلوتوس قد تأثرت من تعاليمه . واني لاعجب منك كيف تود ان تختار شريكة حياتك من بيت متأثر بهذه المبادىء الجديدة . واني اعتقد يقيناً ان ليجيا قد اخذت تميل الى المبادىء المسيحية

ولا اخفي عليك ان اتباع هذه الشيعة قد بدأوا يتفشون بيننا ويبثون تعاليمهم في اوساطنا . انهم يجتمعون سراً في السراديب والمحاجر ويعكرون سلام البلاد ، ويزعجون مجلس الدولة . وقد صدرت الاوامر الى رئيس الحرس ليتعقبهم ويستقصي اخبارهم ويستجوبهم .

– قال ماركوس : سأطلب اذاً من تيجياوس – رئيس الحرس – ان يفتش لي عن ليجيا ...

– اجابه بترونيوس : يخيل اليّ ان القوة لا تنفع مع هؤلاء المسيحيين وقد تحملهم الشدة ان يخفوا هذه الرهينة ويواروها عن الانظار .

– وسأل ماركوس : وماذا استطيع ان اعمل ؟ !

– اجابه بترونيوس : عليك بالالتجاء الى شيلو المنجم الشهير ، والساحر القدير . فهو كثير الاطلاع ، واعتقد ان هذا الرجل الاغريقي يستطيع ان يساعدك ، ويدلك الى مكان حبيبتك ... وللحال امر بترونيوس خادمه ان يدل ماركوس على بيت شيلو وقال لماركوس قبل ان يبرحه : اود منك انه متى وجدت ليجيا ان تأتي واياها اليّ لتصرفا بعض الوقت عندي في انتيوم ...

وجلس بترونيوس ليكمل طعامه . وكانت يونيس على مقربة منه فقال لها : لقد سمعت قصة حب ماركوس ... أليس الحب ضرباً من الحماقة ؟ !

– اجابت يونيس : اذاً انا اولى اولئك الحمقى ...

– وسألها بترونيوس : ومن تحبين يا يونيس ؟ !

– اجابت : انهم تنبأوا لي ان الالم والسعادة هما من نصيبي ...

– قال : لكن سؤالي لك عمن تحبين ؟ ! فاخبريني هل تحبين الكسندروس او مرمليون او اي شخص من سكان هذه الدار ؟ !

– اجابت : اني لا احب احداً سوى سيدي ...

– قال : وهل ترغبين في مرافقتي الى انتيوم .

– اجابت : هذه منتهى سعادتي ...

* * *

اما ماركوس فقد توجه الى بيت شيلو حيث وجده لاهياً في غرفته المملوءة بالآلات الفلكية ، والادوات السحرية ، والخرائط المتنوعة . وباغته ماركوس بسؤاله : هل تستطيع يا شيلو ان تدلني على مكان تلك الفتاة التي كانت تسكن بيت بلوتوس والمعروفة باسم ليجيا .

– اجاب شيلو : عليك ان تتريث قليلاً لاني ارغب ان اتحقق ان كانت هذه الفتاة ترافق تلك الشيعة من المسيحيين . فهؤلاء قد اتخذوا السمكة كلمة السرّ لهم – وهذه الكلمة تتألف من اول الحروف اليونانية المعبّرة عن اسم الههم . وتناول شيلو على الاثر درجاً كبيراً ظهرت عليه تلك الكلمات مكتوبة بوضوح : يسوع المسيح ابن الله . فتأمل ماركوس فيها وسأله : وهل تعرف اين يجتمع هؤلاء المسيحيون ؟ !

– اجاب : انهم يجتمعون في المغاور والمحاجر وفي السراديب خارج

المدينة . ونحن نخشى الامتزاج بهم لانهم اعداء للجنس البشري فهم قتلة الاطفال ومسممو آبار المياه ...

– وسأل ماركوس : وهل هم عازمون على الاجتماع هذه الليلة في مكان ما ؟

اجاب شيلو : ربما كان ذلك ... بيد انه لا بدّ لنا من التستر والتسلح ان كنا نريد ان نفشي اماكن عبادتهم .

– قال ماركوس : ان رغبت استأجرت لك نفراً من الرجال الاقوياء لحمايتك .

– اجاب شيلو : حسن فلنتلاقَ عند غروب الشمس هنا . ولا تنسَ ان تجلب لي بعض النقود لاتمام هذه المهمة . فناوله ماركوس كيساً من النقود وقال له : ان خدعتني ايها الاغريقي فسألهب ظهرك بالسياط ...

الفصل الثامن

ماركوس يحضر اجتماعاً يخص المسيحيين

وتوجه ماركوس صحبة كريتون المصارع الى بيت شيلو . وظل الثلاثة في غرفة ذلك العراف الاغريقي بانتظار حلول الظلام . وعندما توارى نور النهار سار الثلاثة من بوابة المدينة قاصدين بعض المحاجر المجاورة . وكانوا يحملون المصابيح بايديهم ، ويضعون الخناجر في احزمتهم .

وبالقرب من كثبان رملية وتلال صخرية شاهدوا اشباحاً يفدون الى ذلك المكان المنعزل زرافات ووحدانا . فخالوهم بادىء الامر جماعات من المتشردين او عمالاً لحفر القبور ، لكنهم عندما اصغوا الى اناشيدهم عرفوهم انهم المسيحيون الذين جاءوا لعقد اجتماعات سرية في تلك السراديب التي تخفيها بطون المحاجر .

واخذ الثلاثة يترقبون هؤلاء الجماهير عن كثب ، وكانوا يسمعونهم يرددون اسم المسيح ، ويترنمون بترانيم عذبة مثيرة . ولم يكترث ماركوس الى كلمات الترنيم ، اذ كانت ليجيا هي شغله الشاغل . وجذبت مسامعه تحياتهم اللطيفة بعضهم لبعض . فقد تبادلوا التحيات وعبارات الودّ بقولهم : المجد للمسيح ... وسلام الله لكم ... وكلما

سمع ماركوس صوتاً خاله صوت ليجيا فكان قلبه يخفق ، ومزاجه يضطرب .

واحتشدت الجماهير بالقرب من مكان مهجور شابه شكله الامفيثياتر ، ومن هناك دخلت تلك الجماعات الى احد السراديب . وعلى ضوء المشاعل المتلألئة التي صنعوها من القار اخذوا يشدون بترانيمهم الدينية المنعشة . فكنت تسمعهم يهتفون باسم المسيح ، ويمجدون شمس البر الذي هو نور العالم .

واقاموا من احدى الحجارة الكبيرة منبراً ، ووقف بجانبه بولس الرسول يكرز ويلمس جباه المؤمنين . وتراءى في المؤخرة صليب خشبي كان يضفي على الموقف جلالاً ووقاراً . وكان نيزاريوس يحمل طشتاً من

مشهد النساء المسيحيات المصغيات الى اقوال بولس وتظهر ليجيا بينهن

الماء ، ومنه كان بولس يتناول قطرات مقدسة فيمسح بها جبين المكرسين . وكانت النساء آذاناً صاغية الى الكلمات الحلوة التي تفوه بها هذا الرسول الامين .

واستطاع ماركوس ان يميّز بولس لانه كان قد شاهده في بيت بترونيوس . وخشي شيلو ان يكتشف امره ، لانه كان يخاف كثيراً من سرّ المعمودية . فاخذ يلحّ على ماركوس ان يسمح له بترك المكان ، ولكن ماركوس هدّده بالقتل ان هو حرّك ساكناً او خطا خطوة في سبيل الفرار . وظل بولس يعمّد من تقدّم للمعمودية حتى اذا ما انتهى من اجراء هذا السرّ المقدس خاطب الجماهير قائلاً : يسرّنا ان يكون معنا اليوم احد تلاميذ المسيح الذين سمعوا كلامه ، وكانوا له عوناً في نشر رسالته . حقاً انه يطيب لي ان اقدّم اليكم ذلك الصياد الجليلي المسمّى بطرس . فقد جاء من اورشليم ليشهد تأسيس الكنيسة المسيحية في مدينة روما .

وما كاد بولس يفرغ من كلمات التعريف هذه حتى اعتلى بطرس المنبر الحجري . وقد بدت عليه امارات اللطف والوقار ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة المحبة فخاطب الجماهير قائلاً : لقد قادني السيد الى هذه المدينة الجبّارة لاضع اول لبنة في هذه الكنيسة التي نؤسسها الآن على تلة الڤاتيكان . واني بالنيابة عن سيدي اقدر لكم هذا الاخلاص والولاء . فقد آمنتم به بالرغم من انكم لم تروه او تسمعوا صوته . . .

وانه لمن دواعي سروري اني رأيت رب المجد بام عيني وسمعت صوته

بأذنيّ . فقد دعاني – انا صيّاد السمك من بحر الجليل – لاكون صيّاداً للناس ، وتلميذاً له في بناء ملكوت الله . واني اذكر انني فيما كنت اصطاد السمك مع اخوتي ذات يوم اذا بالحظ يخوننا والتعب ينتابنا ، والفشل يراود قلوبنا . وفجأة ظهر لنا المسيح الذي اخذ يرنو الينا بعينيه الرحيمتين ، ويدعوني انا واخي لنكون من رسله واعوانه . عندئذ طار قلبي فرحاً لان السيد شرفني لاكون تلميذاً له .

وطلب منا معلمنا الاكبر ان يدخل قاربنا ليعلّم الجماهير الذين التفوا حوله . فاخذ يحدثهم عن ملكوت الله ، وتساقط الكلام من فمه العذب كالدرر ، فادركت انه هو المسيح ابن الله الحي . ثم طلب مني ان القي شبكتي في الاعماق . وفي وقت قصير امتلأت شبكتي بالصيد الوفير . وسمعته يقول لي : سوف تكون يا بطرس صياداً للنفوس . . .

وسرعان ما استدعى السيد له المجد نفراً من الجليليين ليكونوا تلاميذه وحواريه معتمداً عليهم في نشر رسالته . ثم اخذ يتجول في طول البلاد وعرضها يدعو الناس الى ملكوت الله . وقد اعطى الجياع طعاماً ، وسقى العطاشى من ماء الحياة . . . انه شفى المرضى واقام الموتى وطهر البرص ، وصنع العجائب العظيمة ، موجداً لليائسين املاً جديداً ، ومقدماً للتعابى سلاماً داخلياً .

وفي النهاية شاهدت اعداءه يسوقونه الى مكان يدعى الجلجثة . وبعد ان ساموه اقسى صنوف العذاب علقوه على خشبة الصليب . وسمعناه

في غمرة آلامه يصرخ الى ابيه السماوي قائلًا : يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يفعلون . . . وهل في وسع احد ان يتفوه بمثل هذه الكلمات سوى ابن الله . . .

وارغب ان احدثكم عن اجتماعنا في العلية بعد ان توارى السيد عنا . فقد اكتنفنا الحزن ساعة شعرنا انه تركنا وحيدين ولكن حدث فجأة ان امتلأ المكان بالنور ووقف المسيح الذي قام من الاموات في وسطنا وهالة من الضياء تكلل هامته . وشاهدنا يديه المثقوبتين ولمسنا جنبه المجروح ، فتحققنا انه هو المسيح قاهر الموت والمنتصر على قوات الجحيم .

واني اذكر وصاياه لنا ؛ وطلبه منا ان نكرز بالانجيل للخليقة كلها . . . ولن انسى كلماته العذبة التي تساقطت من فمه الطاهر وهو يخاطب الجموع في عظته على الجبل . واسمحوا لي ان اعيد هذه الدرر الغالية على مسامعكم . قال له المجد :

طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات .

طوبى للحزانى لانهم يتعزون .

طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض .

طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون .

طوبى للرحماء لانهم يرحمون .

طوبى للانقياء القلب لانهم يعاينون الله .

طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يدعون .
طوبى للمطرودين من اجل البر لان لهم ملكوت السماوات .

وبعد ان اعاد بطرس على مسامع الجموع عدداً من تعاليم المسيح السامية رفع يمينه وباركهم طالباً منهم الثبات في ايمانهم ، والتطلع الى نور العالم كينبوع لرجائهم . وامتلأت قلوب هؤلاء المسيحيين بالفرح والرجاء لان محبة المسيح غمرتهم وملأت شغاف قلوبهم .

وظل هؤلاء يقضون ساعات الليل في جوّ من الصلاة والتسبيح ومبادلة عبارات المحبة والولاء الى ان بانت خيوط الفجر ، فاخذت تلك الاشباح الملتفة بعباءاتها تخرج من اماكن تخفيها ، فتترك المحاجر المهجورة وتدلف الى المدينة لتعود الى مزاولة اعمالها الرتيبة في روما العظيمة .

وتأثر ماركوس من كلمات بطرس ، بالرغم من انه كان يكره اليهود ، ويعتز بجنسيته الرومانية ، ويفتخر بانه روماني . اما شيلو فكان يرتجف خوفاً لانه خشي ان يصيبه ضرر ، لانه سمع قول بطرس ان نهاية الاشرار هي الدينونة والهلاك . وفيما هؤلاء المسيحيون يتركون السراديب اخذ ماركوس يتميزهم عساه يصادف ليجيا بينهم . واخيراً توارت تلك الاشباح في ظلال الليل وهم ينشدون ترانيم المديح لسيدهم المسيح .

وفي النهاية اهتدى ماركوس الى ليجيا اذ سمع صوتها الرخيم . وظل يحدق فيها ليتحقق ان كان هو في يقظة ام في منام . وكانت ليجيا تسير بصحبة مريم التي خبأتها عندها في احد احياء روما الحقيرة .

ولاحظ المصارع اورسيوس ان هؤلاء الاشخاص الثلاثة يراقبون حركاتهم وسكناتهم ، فشك فيهم وارتاب في وقفتهم لاسيما وان المسيحيين كانوا قد اقاموه عليهم حارساً ورقيباً .

واقترب على الاثر اورسيوس منهم ، آمراً اياهم ان يظلوا في اماكنهم ولا يتقدموا خطوة واحدة الى الامام . فاستل ماركوس خنجره وهجم عليه فما كان من اورسيوس الجبار الا ان القى كريتون ارضاً ، وجرح ماركوس واسال دماه . وعندما شاهد شيلو ما حلّ برفيقيه لاذ باذيال الفرار .

واغمي على ماركوس من شدة التزيف . وعندما عاد اليه اورسيوس عرف انه صديق ليجيا . فللحال حمله برفق الى بيت مريم حيث هبّت ليجيا لخدمته وتضميد جراحه والعناية به .

الفصل التاسع

ليجيا تعنى بتمريض ماركوس

وعندما افاق ماركوس من غيوبته كانت ليجيا اول شخص وقعت عليه ابصاره . فشاهدها تقف على مقربة منه تمسك باسفنجة وتنظف له جرحه . وكان اورسيوس يقف قريباً منها وعلى استعداد لمساعدتها ولاستجابة اوامرها . . .

وجلس نزاريوس في ركن من الغرفة ، يستعيد بذاكرته حوادث الليلة المنصرمة ، متذكراً بعض الكلمات المنعشة التي تفوّه بها كل من الرسولين بولس وبطرس . وشاهدته امه مريم ، والاعياء باد على وجهه من كثرة السهر ، فطلبت اليه ان يذهب الى سريره ويرتاح قليلاً . . .

اما ليجيا فظلت تمرّض ماركوس وتسهر على راحته . وكانت الدموع تنسكب من مآقيها ، ولما سكنت آلام القائد استسلم الى نوم عميق . وعندما افاق شعر بتحسن كبير يطرأ عليه . واستغرب وجوده في ذلك المكان . وشاهد بزته العسكرية موضوعة على الكرسي بالقرب منه ، وعندما حاول ان ينهض ليلبسها شعر بان ذراعه تؤلمه ، وجرحاً في جسمه يضايقه . . .

وبصعوبة استطاع ان يمشي الى الشرفة ، وان يطل منها الى اسفل فبان لونه شاحباً ووجهه مضطرباً . وحالما شاهدته ليجيا صعدت اليه لتؤنسه وتخدمه . كما انها طلبت منه ان يسمح لاورسيوس ان يمثل بين يديه .

– قال ماركوس : وماذا يريد هذا المصارع مني ؟ !

– ودنا اورسيوس منه وتطلع اليه بعينين دامعتين وقال : اني ارغب ان استميحك العفو ايها القائد العظيم . فاصفح عما بدر مني !

– ودعمت ليجيا استرحامه بقولها : اغفر له اساءته يا عزيزي ماركوس !

– وبعد فترة صمت قصيرة قال ماركوس : كان الافضل لهذا العملاق ان يقضي عليّ ... واني لاعجب من هذا التناقض الغريب عندكم ايها المسيحيون فبعد ان اسال هذا دماني اراه الآن يتعاون معك على تضميد جرحي ... فانا يا ليجيا اشعر بانه قد غلب على امري ، وأسقط في يدي . واني سوف اترك لك ملء الحرية لتتصرفي كيفما شئت . قال هذا وتوجه الى الباب قاصداً مغادرة المكان ...

ولحقته ليجيا مشيعة اياه بنظرات حزينة وهي تقول : انت تعرف يا ماركوس انني لا اكرهك . وانتعشت روحه لهذا التصريح وعاد يتلفت اليها ، فاذا هي تفتح ذراعيها اليه وتقول يا ماركوس الحبيب ... فهتف قائلاً : يا منية روحي وبهجة حياتي ، انكِ منتهى سعادتي وهذه

اول مكافأة انالها منك بعد ان خرجت من اجتماعكم وجرحت على يد حارسكم .

واستغربت ليجيا ان تسمع منه بانه كان حاضراً اجتماعهم . فأكد لها انه انما جاء لكي يطلب يدها ، ويرتبط واياها في الزواج . وعلى الاثر خاطبها قائلاً : تعالي يا عروس احلامي ، واهجري هذا المكان القابض ، ورافقيني الى آتيوم لاجعل زواجي بك يوماً مشهوداً ، ومن ابرز الاحداث .

– والتفتت ليجيا الى الصليب الخشبي المعلق على جدار الغرفة وقالت : عما قريب يزورنا بولس الرسول ، وصديقنا الامين ، وعندذاك اطلعه على استعدادي وموافقتي للزواج بك .

اجابها ماركوس : اما كفاك ما سمعتيه من فم هذين الشيخين في ذلك الاجتماع ؟ !

– اجابته وهي تقترب من الصليب : لا بدّ ان تكون انت ايضاً قد سمعت تلك المواعظ الحكيمة والدرر النفيسة من فمهما – مما سيجعلك تستفيق الى الامور الازلية الخالدة !

– وتطلع ماركوس الى الصليب وتساءل قائلاً : هل هذا هو رمز مسيحكم ؟ !

– اجابت : اجل هو رمز للصليب الذي علق عليه فادينا ومخلصنا .

– ثم قال : ان كان وجود الصليب يضمن لك السعادة فانا على

استعداد ان اضع لك صليباً كبيراً في بستاننا الجميل في صقلية ، كما انني اعدك بان اقيم لك تمثالاً رخامياً للمسيح في ساحة دارنا ... وما عليك الا ان تستوضحي ذلك الصيّاد الجليلي الذي رافق المسيح ان يعطيك بعض اوصافه ليتسنى للنحات ان ينقش لنا تمثالاً للمسيح جامعاً لتلك الاوصاف ...

وخشيت ليجيا ان يكون ماركوس هازلاً فطلبت منه ان يأخذ المسألة بعين الجد . فاجابها : أليس هناك عدد كبير للآلهة عندنا ؟ ! أفنضيق عن ايجاد مكان لواحد زيادة عنهم ... !

– قالت ليجيا : لا تهمني المظاهر الخارجية يا ماركوس . فهذه التماثيل لا تخدعني ... انما صلاتي بان تكون روح المسيح قد لمست نفسك ، ورسالته قد وصلت الى اعماق قلبك ، وحركت الجذور فيك .

– اجاب ماركوس : لا تجزعي يا ليجيا فقلبي وقف لك ، ولا مكان لاحد فيه سواكِ ...

– وتقدمت ليجيا منه وامرّت يدها الناعمة على جبينه وقالت برقة وبلطف : بل اجعل يا ماركوس مكاناً للمسيح في قلبك لاني انما احمل حبه في قلبي .

– ولم يستطع ماركوس ان يتصور احداً يشاركه قلب ليجيا لذلك قال : اطردي هذا الاله من قلبك ! اني اريد قلبك ان يكون لي ووقفاً عليّ وحدي ... !

– وظهر فجأة الرسول بولس بالباب وانعكست ابتسامة عريضة على شفتيه وقال : يسرني ان اراك يا ماركوس متعافياً . . .

– وتقدمت ليجيا من بولس وقالت : لقد طلب ماركوس مني ان اكون له زوجة شرعية وقد قبلت ذلك ، انما ارغب منه قبل ان نرتبط بهذا الزواج ان يفهم ان في الحياة قيماً غير ما نراه في عالمنا الفاني ، ومقاييس ارفع من هذه المقاييس الارضية الزائفة الزائلة .

– قال ماركوس : لقد عرضت عليها ان اقيم لها تمثالاً للمسيح في حديقة دارنا ، وان اسمح لها بان تضع رموزه اينما شاءت . . . فماذا تروم هي مني اكثر من ذلك ؟ !

– اجاب بولس : هذه مظاهر خارجية لا تمت بصلة وثيقة الى معرفة المسيح الحي الحقيقي . وقد يحتاج المرء الى وقت طويل ليدرك الامور الجوهرية والخالدة في الحياة .

– وتساءل ماركوس مستغرباً : ولكن ماذا تريدون مني اكثر من ذلك ؟ !

– اجابه بولس : لا بدّ ان يكون لديك العدد الكبير من العبيد اسوة بباقي النبلاء الرومانيين . فمسيحنا يمجّ ان يرى احداً عبداً للآخر لاننا كلنا في المسيح واحد .

– وسأل ماركوس : وهل تريدون مني ان اطلق سراح عبيدي

ولماذا تبغون ذلك ما داموا هم ملكي الخاص وما دمت قد دفعت ثمنهم من مالي ؟ !

– اجاب بولس : يرتكز ايماننا المسيحي على محبة الله لنا ومحبتنا لاخوتنا بني الانسان ، وهكذا فهذه المحبة تحذر علينا استرقاق الناس وتشجب فكرة استعبادهم .

– وقهقه ماركوس وقال : حقاً لقد سمعت زميلكم بطرس يتكلم عن هذه المحبة . ولكن كيف يتسنى لي ان احب هؤلاء الذين يحاربون امبراطوريتنا .. ؟ ! اتريدون مني ان احبّ البارثيين والفرس والبرابرة الذين يناصبوننا العداء ؟ ! وكيف احب من يتمنى ان يغرس حربته في قلب كل مواطن روماني من ابناء بلادي ؟ !

– اجابه بولس بهدوء ووقار : ولكن هل فكرت ايها القائد العظيم ان تخضع هؤلاء الاعداء اليك بقوة المحبة عوضاً عن اخضاعهم عن طريق السيف ؟ !

– وسأل ماركوس : وهل في وسعك ان تخضع قطيعاً من الذئاب وبيشة طائر ؟ ! يظهر لي ان الاله الذي تعبدونه هو اله غريب عجيب فهو كما يبدو لي يعطف على الضعفاء والمنبوذين وينـاصر جماعات البرابرة والعبيد ؟ !

– ووصل ماركوس الى درجة عيل فيها صبره فنادى ليجيا وقال : تعالي لتكوني زوجة القائد الروماني ڤينسيوس ماركوس ... يكفيك

ذلك ... وما اريدك ان تكوني عبدة لذلك الجليلي المصلوب ...

– فانتفضت ليجيا انتفاضة الملسوع وقالت : ارجوك يا ماركوس ان تقدر لي ايماني ... فانا اتردّد في قبولك زوجاً ما دمت تسخر من الهي الذي اعبده .

– وتحركت روح الكبرياء في صدر ماركوس فقال : أتعنين يا ليجيا انك تودين ان تختاري بين المسيح وبيني ... فانا لا اود ان اشاركك ايمانك بهذا الاله .

– وتقدم بولس ووضع يده برفق على كتفه وقال : مهما تكن محبتك لليجيا عظيمة فهي لا تفوق محبتنا للمسيح ...

– وامتعض ماركوس من كلام هذا المرشد وقال له : كفاك تسمياً لعلاقاتنا ...

– ورنت ليجيا اليه والدموع تسيل من مآقيها وقالت : انا للمسيح قبل ان اكون لك يا ماركوس .

*

وكأن ماركوس اخذ يستفيق الى هذه الجراح الجسدية والنفسانية التي اصابته عن يد هؤلاء المسيحيين . فقرر ان يتركهم وان يبرح مكانهم . وقبل ان يصل الى الباب التفت الى بولس وقال : اعلم انه اذا اصاب امبراطوريتنا مكروه من جراء تعاليمك هذه فالسيف سيسلط على رقاب المسيحيين قاطبة . وتناول الصليب الخشبي عن

الحائط وحطمه ثم تابع سيره متوارياً عن الانظار .

وهرعت ليجيا الى الصليب تلتقط حطامه ، وتذرف الدموع على هذه الحالة الزاهنة . وتقدم بولس ليعزيها فقال : لقد اختبر سيدنا تجارب اعنف من هذه ولكنه خرج منها منتصراً . فاثبتي يا ليجيا في ايمانك واعتصمي بسيدك ، وتأكدي ان النصر يكون لك في النهاية . . .

الفصل العاشر

نيرون ينقل قصره الى انتيوم

ترك ماركوس ليجيا وهو مصمم ان يقطع علاقاته معها . وغدا شاحب اللون من فرط ما تعرّض اليه من اضطراب وقلق وترف دماء . وظل يفكر بليجيا التي بقيت متمسكة بايمانها ، وثابتة على مبادئها ، رغم جميع المغريات التي عرضها عليها . وعزم عندذاك ان يقصد ڤيلا بترونيوس عساه يستمتع عند خاله ببعض الراحة ، ويخفف عنه وطء هذه الصدمات .

وكان بترونيوس قد ترك بيته في عهدة الخدّام اذ قصد انتيوم اسوة بباقي النبلاء الذين نزحوا اليها محاكاة ومجاراة لامبراطورهم . وكان بترونيوس قد كتب لماركوس رسالة طلب من الخدام ان يطلعوه عليها حال قدومه الى المنزل وقد جاء فيها :

انك ان لم تجدني يا ماركوس في مسكني فسوف تلقاني في انتيوم لان كثيرًا من النبلاء نزحوا اليها . وها هو نيرون قد جلب معه ما يزيد عن العشرة آلاف خادم الى هناك ، وكذلك استحضرت الامبراطورة زوجته ما ينوف عن الخمسمائة حمارة لتستعمل حليبها عند الاستحمام .

واعلم ان دور الملاهي كثيرة في انتيوم ، والممثلون كثيرون ايضًا ههنا .

وسألت احد الممثلين وكان من اليهود ان كان ثمة فرق بينهم وبين المسيحيين اجاب ان هؤلاء فرقة جديدة ظهرت في احضان اليهودية ، واتباعها يؤمنون بشخص وُلد في زمن اوغسطس قيصر وصلب على عهد بيلاطس البنطي ايام الامبراطور طيباريوس . ويرفض هؤلاء المسيحيون الاعتراف بآلهة اخرى غير ابيهم السماوي .

واخذت الاحظ مؤخرًا ان نيجليوس اصبح مقربًا من نيرون بحيث غدا ينال حظوة في عينه اكثر مني . واني اخشى ان يكون هذا قد بدأ يحوك مؤامرة ضدي ، فما نعتم حتى ينقلب نيرون عليّ . لذلك تراني استسلم للمسرات ، واصرف وقتي بالملاهي . . . واسمح لي في الختام ان انقل تمنياتي الى حبيبتك المسيحية ليجيبا ناصحًا اياك الا تدعها تكون سمكة لك . . .

هذا بعض ما جاء في الرسالة التي تركها بترونيوس لابن اخته ، وكان بترونيوس قد عهد الى الخدام امر العناية بماركوس ، وكلفهم عند مجيئه ان ينقلوه في عربيته الخاصة الى انتيوم . وبعد ان استراح ماركوس قليلًا ، اخذ يستعد للذهاب الى انتيوم . وعندما اطلّ عليها تراءى له قصر نيرون المرمري المشرف على مياه البحر المتوسط . وكان بترونيوس قد اقام بالقرب من القصر الامبراطوري ليكون على مقربة من الامبراطور .

وشاهد ماركوس الحرس البريتوري يملأون الطرقات ويحيطون بقصر نيرون من كل ناحية . وعندما وصل الى مكان خاله سلّم مقود المركبة الى احد الخدام وسار يسعى الاجتماع به . فوجده في انتظاره يجلس مع جاريته يونيس مقطعًا الوقت ببعض التسليات البريئة .

اما نيرون فكان قد نقل قصره من روما الى انتيوم . واخذ في قصره الجديد يلاحظ النماذج التي وضعها له احد المهندسين عن روما الجديدة ... وكان يقضي بعض الساعات من النهار متأملاً في تلك النماذج والعينات . وكثيراً ما كان يخاطب نفسه قائلاً : سوف انشىء حدائق غناء في هذا المكان الذي فيه يرعى الماعز وتسرح الخرفان . وسوف اقيم الابنية الضخمة على سفوح جبل البلاتين مكان هذه الاصطبلات التي تنبعث منها الروائح الكريهة .

وكان المهندس فيون على مقربة من نيرون ، يثير البهجة في قلبه عندما يقول له : اننا تتميماً لرغباتك سنملأ الاماكن الخربة بالحدائق الغناء ، ونزولاً على اوامرك سوف نزينها بالقيلات الجميلة ايها الاله ... !

وكان نيرون يلتفت دوماً الى مهندسه ويقول : احسنت اذ استطعت ان تجسم افكاري في هذه الرسوم والتصاميم . اننا عما قريب سنحقق هذه الفكرة ونبرزها الى حيز الوجود ... فاني ارغب ان اشيد مدينة جديدة تليق بان تكون عاصمة لهذه الامبراطورية الشاسعة ... وان اسمح للعامة ان يدخلوها الاّ في بعض المناسبات الخاصة .

وقطعت عليهما حبل هذه المحادثات عندذاك بعض الجواري الحاملات اطباق الحلوى وبعض المنعشات اذ دخلن بصحبة اكتي ليقدمن للامبراطور بعض الطعام . بيد انه ضرب بالاطباق ارضاً وصرخ في وجه اولئك اللواتي عكرن عليه جو تأملاته وصفو محادثاته . فخرجن هارعات سوى اكتي التي ظلت تتطلع باستغراب الى الامبراطور .

ورانت منه التفاتة اليها فقال لها : ولماذا ترعجيني بنظراتك يا اكتي ؟ !

- اجابت : لكي تظل تذكرني في هذه المدينة الجديدة !

- وسألها : ولمَ تريديني ان اتذكرك ؟ !

- اجابت : لاني احبك اكثر من اي شخص آخر !

- قال : لكني آسف ان لا تحبيني - فانت شوكة في جسمي ، والافضل لي ان اقلعك . وسوف اعمل على نفيك من هذه المدينة .

- قالت : اني رهين اشارتك ... ولكن تأكد يا نيرون انك اذا ما احتجت اليَّ في احد الايام ، فاني آتيك على جناح البرق واكون لك من اخلص الاعوان .

وخرجت اكتي من القاعة تاركة نيرون ينفرد ثانية مع مهندسه وما اسرع ما قال له : لقد خُلقت النار للتطهير ، وسوف تبرز روما الجديدة من وسط السنة اللهيب المندلعة ، وفوق تلك الركام المحترقة ...

ورغب نيرون ان يعرض هذه النماذج على بترونيوس فتوجه الى سرادقه فوجده يجلس مع ماركوس يلعب واياه الشطرنج . فاصغى الى ما كان يدور بينهما من احاديث فاذا بترونيوس يقول : حالما يعود تيجليوس فسأدعوه صحبة سنكا وغيره من الشخصيات البارزة لتبادل واياهم الرأي في بعض المشكلات ... واني عازم ان اطلعهم على هذا

المشروع العظيم الذي انوي تنفيذه .

وقلق نيرون من هذه العبارات التي سمعها فعاد ادراجه دون ان يجعل احداً يشعر بـه . وكان ماركوس مستغرقاً مع خاله في لعبة الشطرنج لذلك فلم ينتبها له . وفجأة دخل احد الحراس مستدعياً ماركوس للمثول امام الامبراطورة . فلم يجد ماركوس مفراً من الذهاب ومقابلة بوپايا .

اما بترونيوس فظل يتحدث الى جاريته يونيس وقال لها : اني اشعر بنسيم ثقيل يهب عليّ من جهة الامبراطور . فانه في الآونة الاخيرة بدأ يتجنبني وأراه الآن منصرفاً الى اعداد مشروع جديد يستهدف فيه الى نسف روما وتدميرها ...

ودخل ماركوس الى غرفة الامبراطورة . فاذا هي متكئة على الطنافس المخملية . فاستقبلته بقولها : يخال لي ان في مشيتك بعض الزهو والخيلاء ...

– قال : انما جئت مسرعاً لالبي طلبك .

– قالت : كل ما اصبو اليه هو ان استطيع ان اتغلب عليك يا ماركوس .

– اجاب : يظهر لي انك تودين ان تمثلي دور العنكبوت الذي يأكل زوجته عندما يقضي حاجته منها .

– وسألته : أصحيح انك راغب في الذهاب الى صقلية وعازم على ترك روما ؟ !

– اجاب : اجل لقد اشتقت الى موطني بعد ان هجرته مدة تزيد عن الثلاث سنوات .

– وسألته ايضاً : أصحيح ايها القائد ان الرهينة المسيحية التي نالت حظوة في عينيك قد اختفت وما اهتديت اليها او عرفت مكانها . فقد نقل الي عيوني المنبثون في كل مكان انباء اختفاء ليجيا .

– قال ماركوس : اني اعتبر نفسي من الحمقى لتعلقي بها ...

– وعلقت پوپايا على ذلك بقولها : وانا بدوري تأثرت كثيراً منك عندما تركت قاعة الوليمة على ذلك الشكل المفاجئ . ومنذ ذلك الوقت وانا افكر بطريقة انتقم منك على ذلك !

– وسألها : وما الذي حال دون الانتقام مني ؟ !

– اجابت : وجدت انه من الحمق قتل من نكره ، لان الموت ينهي عذاباتهم ، ولا نعود نجد متسعاً للتشفي منهم ، والتلذذ برؤيتهم يتألمون ويتعذبون . وانا قد كرهتك يا ماركوس لتعلقك باذيال تلك الفتاة المسيحية ... وهنا اقتربت منه محاولة ان تميل بصدرها عليه علها تثير فيه شهوة جامحة ، او عاطفة مكبوتة فتنسيه ليجيا وتوقعه في حبائل حبها ...

الفصل الحادي عشر

مشهد احتراق روما

وظل نيرون يذرع ارض غرفته وهو يتأمل في النماذج الموضوعة امامه . وفجأة صرخ مستدعياً مستشاره بترونيوس . فحضر هذا وابتسامة مفتعلة تعلو شفتيه . وحالما شاهده الامبراطور هتف قائلاً : لقد كنت على احرّ من الجمر لاراك ... وان كنت تلاحظني في الآونة الاخيرة مبتعداً عنك فما ذلك الا لاني كنت منهمكاً في اعداد مشروع فني عظيم سوف افاجئك به عما قريب . فانا عندما ابدأ بالانشاد والترتيل تتراءى لي رؤى وتصوّرات لا يحلم بها انسان ...

اجل تفتح الموسيقى امامي ابواب عوالم جديدة ، وتريني آفاقاً واسعة ، أحمل بفعلها الى عالم سحري عجيب ، واشعر فيه بنسيم منعش يهب عليّ من وراء هذا العالم ، فيجعلني انا الاله ادرك انني لست الاّ هباء وغباراً ...

وكان بعض الندماء يصغون الى هذا الحديث ، وعندما وصل الى ذكر الغبار قاطعه احدهم بقوله : تأكد ايها الاله اننا لا نؤمن الا بك ...

– والتفت نيرون الى بترونيوس وسأله : وماذا تقول ايها المستشار في هذا ؟ !

– اجاب : لا شك ان الفنان العظيم يستطيع ان يتحسس مثل هذا الجمال ، وان يتلمس مثل هذه الرؤى العظيمة .

– وقال نيرون : سوف اكون صريحاً معكم . فانا اعرف فريقاً من الناس في روما ينظرون اليّ كطاغية ، ويكيلون لي اللوم لقتلي والدتي وزوجتي ولكن ليعلم هؤلاء انه كثيراً ما لا تدل اعمال الانسان القاسية على حقيقته .

فانا في الاوقات التي اشعر بها بسحر الموسيقى وعذوبتها اغدو لطيفاً مثل الحمل ، ووديعاً كالحمام ، فاتوق في تلك اللحظات الساحرة ان اتميز عن باقي الناس سواء في عمل الخير او في عمل الشر . هذا هو الفنان العظيم وهذا هو سر عظمته ... فانا كفنان اشعر بانني اعظم من اي انسان في هذا الوجود ... !

لقد اخبرتني يا بترونيوس ان انشودتي عن حريق طروادة لم تكن بالانشودة العظيمة ، او بالقطعة الفنية الرائعة فانت على صواب فيما قلت ، لان النحات عندما ينقش تمثالاً لاحد الآلهة لا بد له ان يسعى اولاً للحصول على بعض النماذج ! وكيف تنتظر مني الخلق والابداع وقد حرمت من نموذج يريني مدينة تحترق امامي ... ولما كنت قد حرمت مثل هذا النموذج فلا بدّ للفن ان يبتذل ويسفل ...

– اجابه المستشار : حقاً ايها الامبراطور فلولا تلك الحروب التي

اندلعت في طراودة واحتراق تلك المدينة العظيمة لما استطاع الشاعر هوميروس ان يكتب الياذته الخالدة .

– فهزّ نيرون رأسه علامة الاستحان وقال : اننا في سبيل الفن وجب ان نضحي بكل شيء . . . واعتقد ان فني لن يتكامل الا عندما اشاهد هذه المدينة العظيمة تحترق على مرأى مني . . .

واضطرب بترونيوس عندما ادرك ان نية نيرون تتجه الى اشعال النار في مدينة روما . فارواء لتعطشه الفني المزعوم سيقدم هذا الطاغية على احراق عاصمة البلاد . . . وللحال اخذت تساوره الظنون والشكوك وقال في نفسه : اليس جريمة احراق هذه المدينة الجبّارة ارضاء لشهوات هذا الرجل المتقلب الاهواء ، والشاذ الطباع . . . ؟ !

اما نيرون فازاح الستار عن نموذج المدينة الجديدة التي اعدّها له مهندسه . وهتف باعلى صوته : هذه ايها الرومانيون عاصمتكم الجديدة التي ستبرز الى الوجود بعد حرق هذه المدينة القذرة . ولسوف تكون آية في الحسن والجمال ، ولسوف ادعوها نيرونوبوليس – اي مدينة نيرون . . .

والتفّ حوله ندماؤه وحاشيته ، وهتف الجميع – ليحيا نيرون . . . ! وليحيا نيرو بوليس . . . ! وصرخ احدهم : ان اعمالك يا نيرون قد فاقت اعمال قيصر – وها نحن نشهد بان لا شيء يماثل هذه المدينة الجديدة . . .

اما بترونيوس فلم يشاركهم في هذا ، لانه كان مستغرقاً في تفكيره

العميق. وقطع عليه حبل تأملاته دخول تيجليوس وهو معفر بالغبار، وعلامات التعب والاعياء بادية على وجهه . واخذ يعالي بصوته قائلًا : انظروا ايها الجموع الى روما وهي تحترق . فها هي مدينتكم اصبحت شعلة من النار . . . !

وارسل بترونيوس زفرة عميقة وقال : هل هذا هو مصير روما التي صمدت على ممرّ الاجيال ؟ ! وهل هذا هو ما انتهت اليه عاصمة الدنيا وسيدة العالم ؟ !

واصابت نيرون نشوة علوية ، وكأن ربة الشعر والفن هبطت عليه ، فدعته الى تناول قيثارته . وللحال صعد الى السطح واخذ يتأمل في المدينة الملتهبة ، المرسلة ألسنة من النيران ، وسحباً من الدخان الى السماء ، وعلى الاثر اخذ يوقع الالحان وينشد ويغني .

وهتف وقال : الآن يستقيم وحي ويتسنى لي ان انظم اروع القصائد ، وانشد اشجى الالحان . اذ توفرت لدي مادة استمد الوحي منها . . . فاركبوا ايها الاعوان عرباتكم ، ورافقوني لنشاهد المدينة المحترقة عن كثب . تعالوا لنشهد النار التي بها تحتفل بجنازة عاصمة الدنيا . . .

وخرج الحراس والضباط ليرافقوا نيرون ، اما ماركوس فالتفت الى تيجليوس وسأله قائلًا : وهل كل المدينة تحترق ؟ ! اجاب رئيس الحراس : المدينة باسرها شعلة من النار ما عدا جهة البلاتين والفورم والكولوسيوم . فهذه الاماكن في مأمن من ألسنة النيران .

وللحال اتجه تفكير ماركوس الى ليجيا ، وعلى اثر سماعه هذه

الانباء المزعجة خفّ الى عربته ، وبدأ يلهب ظهور جيادها بسوطه ليتسنى له الوصول الى الحي الذي تسكنه ليجيا قبل ان يصبح طعمة للنيران . وشاهدته الامبراطورة يسابق الريح في عدوه فادركت الى اين هو متوجّه ... فارسلت بعض الحراس ليقتفوا اثاره ويستدعوه اليها . غير ان ماركوس لم يلتفت الى الذين تعقبوه بل بقي يواصل سيره الى قلب المدينة ، وهو يستمع الى الصراخ والعويل ، والاصوات المتعالية من كل مكان والمدوية : روما تحترق - روما تحترق ...

وكانت السماء مغطاة باعمدة من السحب ، ونباح الكلاب يملأ كل مكان ، وسنابك الخيل تتجلجل على الطرقات والارصفة ، والجدران تتداعى ، والبيوت تنهار امام السنة النيران المتأججة . وخشي ماركوس وهو يرى هذه المشاهد الاليمة ان يكون قد سبق السيف العذل ، وان تكون ليجيا قد هلكت ، فلا يصل المدينة الا والاحياء اكوام من الرماد والسكان في عداد الاموات .

وشاهد في الضواحي جماعات من القرويين يقتربون من الاماكن المحترقة بغية تخليص بعض المقتنيات . وسمع الناس يطلبون من الآلهة ان ترفع عنهم هذه الكارثة وتنقذ عاصمة بلادهم من الفناء والدمار . وكان ماركوس عندذاك قد وصل الى تلة قريبة من الاحياء المأهولة فاحس بالدخان يملأ انفه ، والهواء الساخن يلفح وجهه . وشاهد من اعلى التلة المدينة الجبارة وهي تتداعى وتحترق ، مواربة الاشجار والبنايات والقيلات وسط سحب من الدخان . ولم يكن ثمة سبيل الى النجاة من هذه النيران المندلعة سوى بالالتجاء الى نهر التيبر .

وسار ماركوس في طريق ابيان التاريخية – تلك الطريق التي سلكها قبل بضعة اسابيع في موكب نصرته . ونشاهدها الآن تعج بالعربات والمركبات ، وتغص بالجماهير الهائمة على وجوهها ، والهاربة من وجه ألسنة النيران المحرقة . وعرفه سكان تلك الاحياء من ملابسه وتميزوه وتحققوا فيه احد قواد نيرون الطاغية . وما عتم ان اشتدت الهتافات العدائية ، وتعالت الاصوات الداعية بسقوط نيرون ، وطرقت مسامعه اقوال مثل هذه : الويل لنيرون – الموت لمن سبّب حرق روما !

وخشي ماركوس ان تمتد اليه ايدي الغوغاء ، فاستلّ سيفه ، ولفّ رداءه حوله ، وسار فوق الحجارة والركام متوقياً النار والدخان ، وعربات الغوغاء ودوابهم . وظلّ يبعد مفتشاً عن بيت مريم لانه كان يعرف ان ليجيا تقيم فيه . فقد تركها في ذلك البيت ساعة نفر منها ، وأهان شعار ايمانها . وكان كلّه آمالاً بان يجدها في ذلك البيت المتواضع فيساعدها على النجاة من الخطر المداهم ، وألسنة النار المحرقة ... .

الفصل الثاني عشر

ماركوس يخف لنجدة ليجيا

واندلعت ألسنة النيران في كل مكان . واحتشدت الجماهير في الطرقات ، وسدّت الحجارة والركام المسالك والمفاوز والشعاب ، وكنت ترى الناس يسيرون في اتجاه نهر التيبر ، حاملين امتعتهم على ظهورهم ، ويقودون اولادهم بايديهم . وانطلق ماركوس يفتش عن بيت مريم ، عساه يجد فيه حبيبته ، فيعمل على مساعدتها ، واخراجها من مأزقها . وكان بيت مريم يقع في آخر منعطف من ذلك الحي ، وعندما وصله وجده كومة من الحطام والرماد .

وتاق ماركوس ان يجد ليجيا فناداها باسمها ولكنه لم يجد سوى رجل عجوز يجلس فوق تلك الركام ، فسأله عن اهل ذلك الحي ، وعن مريم ، وعن ليجيا ، وعن سكان تلك الدار ؟ ! فاجابه العجوز بان الجميع قد هجروا المكان ولاذوا بالفرار طلباً للنجاة . وللحال سار ماركوس في اتجاه نهر التيبر ، لان هذا هو السبيل الذي سلكته الجماهير عندذاك . وعلى طريقه لمح فتحة تتصل بالاقنية المحفورة في جوف الارض ، والمعدّة لجري المياه القذرة التي كانت تصب في النهر ، فدخل

القناة وشجع جماعات اللاجئين بان يتبعوا خطواته . وتناول خشبة ملتهبة اضاء بها ظلمة ذلك المجرى المظلم ، وسرعان ما اخذ يقود الجماعات التي اقتفت اثاره في ذلك الخندق الارضي . وعندما وصل ضفة التيبر اخذ يساعد النساء والاطفال في الصعود الى سلّم الجسر .

وكانت جماهير غفيرة قد خاضت النهر طلباً للنجاة وفراراً من النيران . وكنت ترى الرجال والنساء ، الفتيان والفتيات ، يرفعون اذرعهم فوق المياه ، ليقوا امتعتهم من الانجراف مع تيار النهر المندفع . وكانت النيران على مقربة من الجسر لذلك كنت ترى الجماهير تندفع الى النهر وتحتشد حول الجسر . وتطال ماركوس بعنقه متفحصاً الموقف عساه يجد ليجيا بين تلك الجموع . ولشدّ ما جذب اورسيوس نظره من

مشهد احتراق روما ، واحتشاد الجماهير عند جسر التيبر .

فرط طوله ، فادرك لساعته انه لا بدّ لليجيا ان تكون قريبة منه . واخذ يتميز الجماهير المحتشدة الى ان لمح اخيراً ليجيا فناداها . فهبت اليه ، وعانقته وقالت : كنت اصلي كل الوقت من اجلك ... وزفرت وتنهدت ، وهي تتمتم قائلة : لقد هلكت حبيبتنا مريم وسط النيران ... وشهق نزاريوس ، وغصّ بالبكاء لدى سماعه اسم امه وقال : لقد هوى جدار البيت على امي فاودى بحياتها ...

– قال ماركوس : يسرني ان تتاح لي هذه الفرصة لاساعدكم على النجاة من الاخطار ... ولا بدّ من قطع الجسر والاجتياز الى الناحية الثانية لتكونوا في امان من النيران .

– اجابت ليجيا : بيد ان الحرس البريتوري يمنعنا من اجتياز الجسر . وليس من سبيل الى العودة الى قلب المدينة لان ألسنة النار ما برحت مشتعلة ...

وعلى الاثر تقدم ماركوس من رأس الجسر ، وطلب من قائد الحامية ان يفتح له طريقاً ، ويسمح للجماهير بان تجتاز الجسر ، الا ان القائد تمنع وقال : ان الاوامر التي صدرت اليه هي للحؤول دون اجتياز الجماهير الجسر ، ودخولهم منطقة البلاتين . وغضب ماركوس من هذا التدبير وخاطب قائد الحامية قائلاً : بصفتي قائد الفيلق الرابع عشر امرك ان تسمح لهؤلاء النازحين باجتياز الجسر ... واستلّ سيفه واخذ يشهره في وجه كل من يحاول اعتراض سبيله .

وتقدمت الجماهير لاجتياز الجسر بعد ان رأت ماركوس يفتح لها

الطريق . وكان اورسيوس يعتزم ان يوصّل ليجيا الى بيت بلوتيوس . وفرح عندما شاهد ماركوس يساعده في ايجاد سبيل لها للنجاة ، وشعر بان حملًا ثقيلًا قد ازيل عن كاهله . واخذت الاشاعات تنتقل من فم الى آخر ، بان جوبتر هو الذي عمل على حرق روما وازالتها من الوجود . ولذلك احتشدت الجماهير في ساحات الهياكل ، وملأت قاعاتها طالبين الرحمة من الآلهة لترفع عنهم هذه الكارثة .

وراجت اشاعات اخرى بان نيرون هو الذي دبّر حرق روما ، ليتخلص من الروائح النتنة التي كانت تنبعث من بعض احيائها الوضيعة ، وانه هو الذي اصدر اوامره الى الحرس البريتوري بان يفتكوا بالسكان النازحين للتخلص من مشكلة ايوائهم .

*

وما اسرع ما امتدّت النيران الى كل مكان مندفعة من المرتفعات ملتهمة كل ما يعترض طريقها من مخازن وبنايات ، ومسارح وامفيثيترات ... ووفدت بعض الغوغاء من الضواحي الى المدينة بقصد السلب والنهب . وحملت الرياح الاخشاب والمواد الملتهبة وطوّحت بها في الحقول المجاورة لروما .

وغدت فكرة انقاذ المدينة عسيرة ، لان النار قد امتدت واتسعت ، وازداد عدد اللاجئين والنازحين اذ برزت مشكلة جديدة امام المسؤولين . وتعالت الاصوات من كل حدب وصوب : روما تحترق .. ! روما تحترق .. ! ولم يعد احد ليفرّق بين عبد وحرّ ، وبين

روماني وبربري ... ووسط هذا الهرج والمرج تصاعدت اصوات شجية ، وانغام عذبة انطلقت من قلوب المسيحيين . وكنت تسمع في بعض الامكنة اسم المسيح يردّد ويُعظّم . والتسابيح والاناشيد تشير الى يوم الدينونة ومجيء الرب العظيم .

وخيّم الظلام ، الاّ انه كان ابهى من النهار لان النيران ما برحت تتأجج ، وألسنتها ترتفع . وما عتمت ان التهمت النيران مخازن القار التي كانت قرب الامفيثيترات والحبال المودعة فيها ، فاحدثت لهيباً ودوياً ، تزعزعت المدينة من هوله . ولم تهدأ ثورة النيران لانها بقيت تزيد وتتفاقم ، وتهدد وتزمجر ، وكأن القوم باتوا في يوم الدينونة الرهيب .

وهرع فريق من المسيحيين الى سراديبهم للالتجاء اليها من هول تلك الكارثة . وكنت تراهم يحملون المشاعل والمصابيح ، ويرددن اسم المخلص الفادي ، ويرتلون التسابيح المنعشة . وكان الرسول بطرس يرافقهم الى تلك الملاجيء الآمنة ، وكنت تراه يركع واياهم ويصلي لله ، طالباً رحمته وغفرانه . وعندما عرف المسيحيون ان الرسول في وسطهم التفوا حوله ، وكأنهم شعروا بقوة عظيمة لوجوده بين ظهرانيهم فاخذوا يرهفون اسماعهم الى كلماته . فخاطبهم قائلاً : لماذا انتم مضطربون يا اخوتي ؟ ! فكيف تعملون في يوم الدينونة العظيم ؟ ! لقد عاقب الله بابل واحرقها ، ولكن اذكروا ان رحمته ستحل على اولئك الذين تكرسوا عن طريق المعمودية فاصبحوا اتباعاً

المسيح . فلا تخافوا ايها المقدسون المفديون لان المسيح قدّس حياتكم وافتداكم بدمه الطاهر الثمين . . .

وجاءت كلمات بطرس مطمئنة لقلوبهم ، وباعثة الرجاء في نفوسهم . وعوضاً من ان يستسلموا للخوف اخذت محبة الله تملأ شغاف قلوبهم وتتحرك في تموجات افكارهم . وهكذا عاد الرجاء يراود افئدتهم ، فامتلأوا بروح التعزية والايمان ، وشكروا الله الذي يسّر لهم هذا الرسول الامين ليكون بينهم يشاطرهم آلامهم ومصاعبهم ، ويدفئ قلوبهم بكلمات الرجاء والمحبة والايمان ، ويشجعهم على الصبر والثبات والنضال وسط الشدائد والاضطهادات . . .

الفصل الثالث عشر

نيرون يراقب احتراق روما

واجّل نيرون قدومه الى روما حتى كانت النيران قد وصلت منتهاها . واصطف ١٦ الف من اعضاء الحرس البريتوري على جانبي الطريق ، ليضمنوا للامبراطور سلامة المرور وعدم اقتراب الغوغاء منه . وسار نيرون برفقة حاشية كبيرة من نبلائه وندمائه واهل قصره . وتعالت بين الآن والآخر صرخات عدائية موجهة ضد موكب الامبراطور بيد انه لم يجسر احد على الاقتراب من ذلك الطاغية او مسّه بسوء .

ووقف نيرون على سطح قصره ، وقد غمرته سحابة من الدخان الكثيف فنادى زوجته ومستشاره ورئيس حرسه ، وتطلع اليهم وسط النور المنعكس من تلك النيران المتأججة وكأنه شعر بانه في غيبوبة صوفية ، او نشوة علوية . وخاطب بترونيوس الذي بدا يائساً ومضطرباً قائلاً : انظر ماذا صنعت يداي !

ثم دعا نيرون تيجليوس ان يناوله رداءه الارجواني وقيثارته الذهبية . فلبس الرداء ، واخذ القيثارة وبدأ يعزف نشيد النصر ، ويقول : اخشى ان لا يكون ما اعزفه الان هو اروع الالحان !

فشجعه بترونيوس بقوله : ان هـذا المشهد خلق لفنك ايها العاهـل العظيم ! وتملك الغرور قلب نيرون وقال : بورك فيك يا بترونيوس فانت تشجعني . . . لا سيما وانت تعرف انـه عـليّ ان انافس اولئك الفنانين العباقرة الذين ابدعوا اروع الالحان عند حرق مدينة طروادة .

ورفع نيرون عينيه الى العلاء ، وكانت السماء قد امتلأت باللهيب الاحمر وبألسنة النار . وتطلع الى الافق فـاذا هياكل الآلهـة تتداعى وتصبح اكواماً من الرماد . وكلما زادت النيران اشتعالاً كلمـا زاد فرح نيرون ، وكثر انشاده وثارت عواطفه . وفيما روما تحترق كان الامبراطور غارقـاً في شدوه وغنائه ومحاولاته لاخراج ابدع الموسيقى واروع الالحان المعبرة عن هذه المأساة المروّعة . . . !

ولشدّ ما كره نيرون روما وسكانها ، وهام بعزفه وموسيقاه . وماذا يروم نيرون اكثر من ان يرى روما تشتعل ، وألسنة اللهيب تتصاعد من مبانيها ؟ ! ويكفي حاكم العـالم ان يقف على سطح قصره ليعزف على قيثارتـه الذهبية نشيداً اقتبسه عن بريام فتسمعه يردّد قائلاً : يا مهد ابائي ومواطن اجدادي . . .

وسرعان ما حنى ندماؤه واعوانه رؤوسهم استحساناً لغنائه . وعندما توقف الامبراطور قليلاً عن الشذوذ كان الجوق الملتف حوله يردّد كلمات القرار . وكأنّ منظر روما وهي تحترق لم يثر شفقته بل حرك عاطفته للغناء . اذ فجأة ينقلب مزاجه فترى الدموع تتساقط من مآقيه . فيطرح قيثارته ارضاً ويقف صامتاً مشدوهاً .

وقطعت الغوغاء عليه جبل سكوته اذ كانوا يصرخون طالبين الانتقام ممن سبّب لهم هذه الكارثة . وخشي نيرون من الغوغاء فالتفت الى تيجيليوس وقال له : هل في وسعي ان اعتمد على جنودك ؟ !

– اجابه تيجليوس : بكل تأكيد ايها الاله !

– وقال بترونيوس مقاطعاً : اعتقد ان الشعب في حاجة الى ترضية سلمية ووسائل للانتقام ...

وكانت الجماهير قد اندفعت في اتجاه القصر وهي تحمل الحجارة وقطع الحديد ، وقد اخترقوا النطاق الذي ضربه الحرس البريتوري للحيلولة دون وصولهم الى القصر . وعندما شاهدهم نيرون صرخ قائلاً : اوقفوا سيول الغوغاء المندفعة .

اجابه بترونيوس : انهم جماهير الشعب مدفوعون بالغريزة ليفروا من النيران ، وينشدوا مواطن الامان !

والتفت نيرون الى تيجليوس مستفسراً عن الحالة ، فطمأنه هذا بان القصر محاط بالحراس ... وكان نيرون يصغي الى الصراخ المتعالي ، والهتافات العدائية ، فخشي البقاء على السطح فقال لحاشيته : الليل بارد والافضل لنا ان ننسحب ... !

ولشدّ ما وجد الحراس صعوبة كبيرة في ايقاف تيار الغوغاء المندفع ، فقد انهالت الحجارة عليهم ، وكانت الاصوات تدوّي : الموت لمن سبّب حرق هذه المدينة ! الموت لنيرون الذي اوجد هذه الكارثة !

– وسأل نيرون : ماذا يصرخ هؤلاء ؟ !

– اجابه مستشاره : يظهر انهم اعطوك لقباً جديداً. فانهم ينعتونك بحارق المدينة .

ودخل على الاثر تيجليوس وهو يتزف دماً لانه كان قد اصيب بحجر في وجهه . وقال : لقد طلبنا نجدات قوية واني آمل ان تصل قريباً . وليتك اتنا. ذلك تكلّم الجماهير ايها الامبراطور مقدماً لهم بعض العروض ، ومسبغاً عليهم بعض الوعود !

– قال نيرون : تكلّم انت باسمي . . .

– اجاب تيجليوس : سأكلمهم بالنار والحديد متى حضرت النجدة .

– واقترب نيرون من بترونيوس وقال : وماذا تشير عليّ يا مستشاري ؟ ! اراك تقف بعيداً ولا تحرّك ساكناً . . . انهم ينظرون اليك كصديق لهم فتحدّث اليهم وعدهم باننا سنهبهم انهاراً من الزيت والخمر ، واهراء من الحبوب والحنطة .

اجاب بترونيوس : سيأخذ الشعب هذه المآكل بدون اذنك يا نيرون !

– قال : عدهم باننا سنبني لهم روما الجديدة المزودة بالقصور والملاهي والبحيرات !

– اجاب : هذه الوعود المعسولة لا ترضيهم الان ما دامت سقوف بيوتهم قد انهارت ودعائم منازلهم قد تقوّضت .

– قال نيرون : وماذا تظن انه يرضي الشعب ؟ !

– اجاب بترونيوس : انما يرضيهم العدل ايها الاله ! فهم يفتشون عن سبيل للانتقام .

– قال نيرون : ما دمت يا تيجليوس انت الذي حرقت المدينة فاذهب الى الغوغاء واكشف لهم عن صدرك ليصبوا جام غضبهم عليك وينتقموا منك .

– اجاب تيجليوس : انني مستعد ان اعمل هذا عن طيبة خاطر . انما لا تنسَ انني رئيس الحرس البريتوري . وهذا الحرس يحبني فاذا ما قتلت اخشى ان يثور الجنود عليك ، فتصبح حياتك في خطر . . .

واصفرّ وجه نيرون ، ولم يجد وسيلة للخروج من هذا المأزق . وكانت زوجته تقف على مقربة منه فنادت تيجليوس وهمست ببعض الكلمات في اذنه ملمّحة له بضرورة الانتقام من المسيحيين . . .

– وعاد على الاثر تيجليوس ومثل امام الامبراطور وقال : ان الشعب لا يرضى بضحية واحدة ، بل هو يحتاج الى آلاف الضحايا . . . وانت ايها العاهل العظيم تعرف هذه الشيعة الجديدة التي ظهرت في بلادنا مؤخراً . انهم اتباع المسيح الذي صُلب في عهد الوالي بيلاطس البنطي . ومراراً عديدة اخبرتك عن مراسيمهم وعباداتهم وعن تصريحاتهم الخطرة . وها هم جمهرة الناس يرتابون منهم ، لانهم لا يدخلون هياكلنا ، ولا يسجدون لالهتنا مدعين ان فيها ارواحاً شريرة . هؤلاء المسيحيون لا يحضرون اجتماعاتنا ، ولا يشتركون في مسابقاتنا ومراهناتنا ، وهم

فوق ذلك لا يحترمونك بل على النقيض يعتبرونك عدواً للجنس البشري .

وكأن نيرون وجد لنفسه منفرجاً في هذه الاقوال . وعلى الاثر قال : هذا الشعب يود الانتقام ، فليكن له ذلك . انهم يتوقون الى الدماء فلنرو ظمأهم عن طريق هؤلاء المسيحيين . . . ثم وقف منتصباً ورفع يديه الى العلاء وصرخ : يا زفس وابلو وآلهة بلادي ساعدوني على اعطاء قراري . . .

وانتفضت پوپايا من جانبه وقالت : هؤلاء المسيحيون هم اعداء الانسانية ، واعداؤك يا نيرون فلا تتأخر عن معاقبة هؤلاء المجرمين !

ووضع نيرون يديه على صدره وقد غلبه التعب والاعياء وقال : اي عقاب يتناسب مع جريمتهم . . . اني اضرع الى الآلهة ان تلهمني حكماً يتمشى مع فداحة جرمهم ، وفي الوقت ذاته يرضي شعبي ويحملهم على ان يتذكروني على ممر الاجيال .

*

وخشي بترونيوس ان يسبق السيف العذل وان يوقع هذا الرجل المتهوّس المتقلب حكمه الجائر على جماعات المسيحيين . فاشفق عليهم لانه اعتقد ببراءتهم . كما انه خشي على ليجيا – التي كانت احد افرادهم . واخذ يشحذ ذهنه علّه يهتدي الى طريق ينقذ فيها حبيبة مارکوس من هذا الحكم الصارم . واخيراً انفتقت له فكرة جديدة فرغب ان يبسطها للامبراطور فقال : حقاً لقد وجدت ضحايا وفي وسعك وانت صاحب السلطان اصدار الحكم عليهم . لكن كن شجاعاً

يا نيرون ولا تمرّه على شعبك بـل تجرأ وقل لهم انك انت الذي حرقت روما . وسوف تتناقل الذراري هذا الحدث العظيم بان نيرون الجبّار من فرط قدرته وقوته استطاع ان يضحي ببلاده في سبيل فنّه . عندئذ يقال انه منذ الخليقة لم يستطع احد ان يفعل ما فعله نيرون . . . فاحترس ايها العاهل كي تحافظ على سمعتك بان لا تسمح للاجيال اللاحقة بان تهزأ منك ، فتقول ان نيرون حرق روما بيد انه كان جباناً فلم يجرؤ على المجاهرة بعمله بل اسند الجرم الى جماعات من الابرياء . . .

وتأثر نيرون من عبارات بترونيوس التي كان يهدف من ورائها تخليص المسيحيين الابرياء من هذه التهمة . وساد الجو فترة من السكون ، وتطلع الجميع الى نيرون ليروا حكمه وقراره . . . وفجأة وجّه نيرون هذا السؤال الى بترونيوس فقال : اخبرني لماذا تريد ان تبقي على حياة هؤلاء المسيحيين - اعداء الدولة ؟ !

وقاطعته زوجته بقولها : انه يعمل ذلك لكي ينقذ ليجيا ربيبة بلوتيوس - وحبيبة ماركوس . انها من اولئك المسيحيين كما انني اخشى ان يكون بترونيوس قد غدا ايضاً مسيحياً . . . وسأله نيرون : احقاً انك مسيحي يا بترونيوس ؟ ! اجاب لو كنت مسيحياً لتصرفت مثلهم اذ ان من مبادئهم محبة القريب وها انا عندما اتطلع الى الناس حولي في هذا القصر لا اجد قبساً من هذه المحبة او من يشجعني على محبة الآخرين . . .

قال نيرون وقد عيل صبره : الشعب يتطلب انتقاماً . وسوف

اروي ظمأهم بان اغزو حرق روما الى هؤلاء المسيحيين ، وهكذا نتخلص من هذه الشيعة الفاسدة التي اخذت تسمم الافكار ضد الامبراطورية . فانا عازم على افناء هؤلاء المسيحيين وابادتهم عن وجه الدنيا . وسوف يكون عقابهم عبرة لكل من يحاول ان يؤذي روما او يتعرض لشخص امبراطورها باي سوء او اذى .

ونادى الكاتب ، واخذ يملي عليه مرسومه الامبراطوري الجائر ، وقبل ان ينتهي منه هتف بترونيوس قائلاً: قبل ان توقع المرسوم يا نيرون تذكر ان روما اعطت العالم النظام والعدالة . وبتجريمك المسيحيين انما تجرم نفسك امام التاريخ ، وتضع وصمة عار في جبين العدالة الرومانية . انك باضطهادهم وقتلهم انما تخلق الشهداء منهم – فدماء هؤلاء الشهداء سيكون بذاراً لانتشار دينهم ، وضماناً لبعثهم وخلودهم .

وتفرّس نيرون في وجه بترونيوس وهو يوقع المرسوم الفظيع ويقول : عندما ابيد هؤلاء المسيحيين فعندذاك تأكد بان التاريخ لا يعود يذكرهم ، ولن تقوم لهم قائمة فيما بعد . . . !

الفصل الرابع عشر

ماركوس يلتقي بالرسول بطرس

وبعد ان وصل ماركوس بيت بتروبيوس استسلم للنوم لانه رغم صلابة عوده ، وقوة بنيته شعر بالحاجة الى الراحة بعد تعب ذلك اليوم المضني ، وما اسرع ما استغرق في نوم عميق . وعند الصباح خفّ الى الحديقة ليستنشق النسيم العليل ، فاذا بليجيا قد سبقته اليها ، لانها كانت منهمكة في استقبال اللاجئين الذين جاءوا يتطلعون الى مكان أمين من النيران .

واقبل ماركوس ليخبرها انه جاء من انتيوم لانقاذها . وانه جزع كثيراً عندما شاهد بيت مريم كومة من الرماد ، وانه الآن سيظل مرافقاً لها لان مخاطر الساعة كثيرة ، ولا يعرف احد ما يحمله المستقبل معه ، لاسيما وان العبيد قد بدأوا يثورون على اسيادهم ، والفوضى اخذت تتفشى في شتى الاماكن والاوساط ...

وكانت ليجيا تصغي الى حديثه باهتمام ، ثم قال لها ماركوس وهو يبتسم : سوف اخلصك من هذه الاخطار بان احملك معي الى صقلية ، فبيتي سيكون بيتك ، وممتلكاتي ستكون ممتلكاتك . وسوف اعيدك الى بومبينا لاقترن بك عن يدها . وقطع عليهما مجرى الحديث وقع

اقدام فالتفت ماركوس ليرى من القادم فاذا هو الرسول بطرس .

– وللحال هرعت ليجيا لاستقباله . وعندما رأى بطرس ماركوس قال له : لطالما سمعت عنك ... وانها لفرصة سعيدة ان يتاح لي ان اراك ... واني اقدر لك – ايها القائد العظيم – اهتمامك الزائد باختنا العزيزة ليجيا ...

– فقال له ماركوس : ارى من الحكمة ان يتوارى المسيحيون عن الابصار ريثما تهدأ العاصفة ، فلا يزاولوا نشاطهم او يبذروا بذورهم في هذا الجو المضطرب .

– وكانت الاصوات تتعالى في الخارج – فجذب ماركوس نظر الرسول بطرس اليها وقال : يبدو ان الحالة اخذت تتأزم ، وها هي اثارها بادية في هذه الفوضى التي بدأت تشيع حولنا .

– اجاب بطرس : لقد طفح السيل ، وكثرت المآسي اذ اصبحت كمياه البحار ... واشار الى ليجيا وقال : خذ هذه الفتاة التي ارادها الله لك وخلّصها ...

– وطمأنه ماركوس بقوله : اني لا اتركهم تتعرضون للهلاك هنا ...

– اجاب الرسول : لقد اناط بي السيد ان ارعى غنمه . فقد اوصاني ثلاث مرات وانا قرب بحيرة الجليل ان ارعى قطيعه ، واذا كنت انت الذي لم تُنط به رعاية الشعب لم ترضَ بان تتركنا نستهدف للهلاك فهل ينتظر مني انا الذي انيطت بي هذه المسؤولية المقدسة ان اترك القطيع

الصغير هذا يتعرض للهلاك ... ؟! انني اذكر ان سيدنا المسيح عندما هبت العواصف علينا فوق البحيرة لم يتركنا نستسلم للخوف وللهلاك بل هدأ روعنا بأن أسكن العاصفة حولنا ... افلا يليق بي ان اسير في خطواته وانهج منهاجه ... ؟!

– وصمت ماركوس هنيئة ثم التفت الى ليجيا وقال : سوف اعود الى المدينة لاجتمع بغابيوس – زميلنا في القيادة – لاننا نريد ان نضع حداً لهذه المآسي فننقذ البلاد من حكم الطغيان . وسوف اعود اليكم قبيل المساء. واذا اضطررت للبقاء ارسلت لكم من يحمل الاخبار بذلك .

ترك ماركوس المكان متوجهاً الى بيت خاله . وحالما شاهده بترونيوس شكر الآلهة على حياته وصرخ قائلاً : كنت كثير القلق عليك يا ماركوس لان الاوقات شريرة . وشاهده يحمل رسالة بيده فسأله عنها . فقال له ماركوس : انها وثيقة لخلع نيرون . فالجيش قد قرّر خلعه وتنصيب القائد غالبو امبراطوراً مكانه . وها نحن سنبعث لغالبو طالبين منه قبول تسلّم الحكم . ولا شك انه اذا رأى امضاءك على هذه الوثيقة يزداد ثقة وايماناً ، ويكون اكثر استعداداً لقبول عرضنا ...

وبعد ان وقع بترونيوس الوثيقة ناولها ماركوس الى احد الجنود طالباً منه الاسراع بتسليمها الى غالبو . اما بترونيوس فنصح ماركوس ان يذهب مع ليجيا الى مكان بعيد عن المدينة ، لان الامبراطورة حاقدة عليه ولا بدّ ان تصب جام غضبها على كليهما . واسرّ اليه بأن نيرون يعتزم اضطهاد المسيحيين متهماً اياهم بحرق روما .

– وسأله ماركوس : وهل يصدّق الشعب هذه الشائعة ؟ !

– اجاب بترونيوس : اجل ان الجماهير تصدق كل شائعة في هذه الايام .

واستدعى بترونيوس يونيس لتسليه ، فدخلت هذه الجارية الفتانة تتهادى بثوبها البنفسجي ، فجلس واياها يتسامران ويتناغيان . ثم تأوه بترونيوس وقال : وماذا يحلّ بنا فيما لو اضطررنا ان نفترق ؟ !

– فالتفتت اليه يونيس وقالت : وكيف يكون ذلك ؟ !

– اجاب : ربما اضطررت للذهاب الى سفرة بعيدة . . .

وجلسا الى مائدة زخرت باصناف الطعام . وفيما هما في غمرة سرورهما دخل عليهما احد العبيد وقال : ان احد ضباط الحرس البريتوري بالباب . وهو يحمل امراً من الامبراطور . ولم يكن نيرون ليتصل بمستشاره عن طريق الحراس ، لذلك توجس بترونيوس بعض السوء ، ولكنه لم يتظاهر بالاضطراب بل تناول الكتاب من يد الحارس برباطة جأش واطلع على ما جاء فيه . ثم التفت الى يونيس وقال لها : ان الامبراطور يرغب ان يقرأ كتاباً جديداً هذه الليلة ، وهو يدعوني للحضور . . .

– وسألته : هل انت راغب في الذهاب ؟ !

– اجاب : ان صحتي تساعدني للذهاب والاصغاء الى اشعار الامبراطور وارى انه من الافضل لي ان اذهب لاسيما وان ماركوس لا يستطيع ان يكون حاضراً .

وتوجّه بترونيوس الى قصر الامبراطور . وسأله نيرون لماذا لم يحضر ماركوس معه ؟ اجاب بانه لم يكن في البيت . ثم تابع حديثه بقوله : اخبره انني اسرّ بمرآه ، وآمل الا تفوته مشاهد عذاب المسيحيين الذين سيطرحون الى الوحوش لاشتراكهم في حرق روما .

واضطرب بترونيوس لانه ادرك ان رشاشاً من هذا الاضطهاد لا بدّ ان ينال ليجيا ـ خطيبة ماركوس . ولذلك حاول ان يترك مجلس نيرون ويعود الى بيته سريعاً . ولدى عودته كان اول سؤال وجهه الى الخدم استفساره عما اذا كان ماركوس قد عاد الى المنزل ؟ ولما علم ان ماركوس موجود ذهب ليراه فوجده شارد اللب ، مطأطىء الرأس ومضطرب البال ، فسأله عن سبب وجومه واضطرابه فاجاب : لقد وصلني الساعة نبأ القاء القبض على ليجيا . وعلمت انها أودعت سجن مامرتن . . . !

الفصل الخامس عشر

ماركوس بسجن مع جماعة المسيحيين

وتعالت الصرخات من كل صوب وناحية : اطرحوا المسيحيين للاسود – فهم اسباب الكارثة ... ! وهم الذين حرقوا روما ... ! وصدّق الشعب هذه الشائعات لان النوغاء كانوا يتوقون للتمتع بنوع من التسليات ، ومتعطشين لارواء سورة غريزة الانتقام بمشاهدة هؤلاء البؤساء يصارعون الموت عندما تفتك بهم الوحوش الضارية ...

ونُصب امفيثياتر خشبي كبير لهذه الغاية . وكنت ترى الوحوش الكاسرة تساق اليه زرافات ووحدانا ، وعلى مرأى من النوغاء وحشود الجماهير الثائرة . وما اسرع ما جُلبت الفيلة والنمورة من افريقيا ، والتماسيح من نهر النيل ، والاسود من جبال الاطلس وانواع اخرى من وحوش ضارية جُلبت من غابات جرمانيا . وقد اقتضت الحاجة الى وجود الكثير من الوحوش لان الضحايا كانت متعددة ووفيرة ، ولان رغبة الجماهير كانت تستدعي التنويع في هذه المُتع الاجرامية .

وساعدت النوغاء افراد الحرس البريتوري للقبض على المسيحيين . وكان الجند لا يجدون في ذلك مشقة ، لان المسيحيين كانوا يحتشدون في

الحدائق والبساتين ولا يخشون الاعتراف بدينهم علانية . وعندما كانت تداهمهم فرقة من الجنود كانوا يخرون على ركبهم ، ويصلّون الى سيدهم ، ويترنمون ببعض التسابيح الروحية ، ثم يقدمون على تسليم انفسهم غنيمة باردة الى مضطهديهم ومعذبيهم .

وهذه السكينة التي لازمتهم ، والصبر والثبات اللذان واكباهم ، اهاجت سخط الجماهير واثارت غضبهم ، فكنت ترى الغوغاء تهاجم المسيحيين بشدة ، وتنتزع اطفالهم بقسوة متناهية من وسطهم ، وتسوق نساءهم من شعورهم بفظاعة على مرأى منهم . وسرعان ما اقام الشعب احتفالاته السارة ، وولائمه الخليعة على اصوات هؤلاء البؤساء وانين جرحاهم .

*

وتوجّه ماركوس الى سجن مامرتن حيث كانت ليجيا مسجونة وهو يعتزم ان يساعدها لاخراجها من السجن واطلاق سراحها . وعندما اقترب من السجن اعترضه احد الحراس وحالما عرفه همس في اذنه بانّ ليجيا بامان اذ هي وُضعت في حماية اورسيوس . وتبيّن لماركوس ان هذا الحارس يخفي شارة السمكة بين ثيابه فعرف انه من المسيحيين ، فاطمأن باله ، وهدأ روعه . وقاده هذا الحارس الى الداخل وسأل بعض الجنود ليدلوا ماركوس على عائلة بلوتيوس ويرشدوه الى افرادها .

– وخاطب ماركوس الجنود قائلاً : لدي اوامر بان اطلق سراح هذه العائلة . . .

– وسأله الحراس ان كان لديه امر كتابي بذلك ؟ !

– اجابهم : انا قائد الفيلق الرابع عشر الروماني وانا اصدر الاوامر بذاتي . . .

*

وكان تيجليوس رئيس الحرس يستمع الى هذا الحديث وللحال ظهر مع كوكبة من الجنود فطوقوا المكان والقوا القبض على ماركوس وجرّدوه من سلاحه . وخاطبه تيجليوس قائلًا : لقد توقعنا ان تكون هذه نهايتك يا ماركوس . وانه لشرف للجندي الروماني ان يموت في ميادين القتال وساحات الوغى ، بيد انك اخترت لنفسك ميتة شنيعة . . . وعلى الاثر امر تيجليوس الحرّاس ان يزجوه في غياهب ذلك السجن مع جماعات المسيحيين .

وحمله الجنود بعنف الى غرفة داخلية مظلمة حيث كان قد زجّ فيها عدد كبير من المسيحيين . فوصلت مسامعه صلواتهم ، وخزّ في قلبه بكاء اطفالهم .

– وعندما شاهدته ليجيا تقدمت اليه وصرخت قائلة : ولماذا جلبوك يا ماركوس الى هنا ؟ ! فأمسك بذراعها وضغط بيدها على قلبه وقال : قد اتيت اليتها الحبيبة لاخلصك . . . !

– اجابته : لكني اشعر بدنو اجلي . . . وسوف اموت قريباً اما في هذا السجن او في الساحة العمومية . واني كنت اصلي من اجلك

ويظهر ان السيد استجاب صلاتي اذ سمح لنا بهذه الساعات القليلة لكي نودع بعضنا بعضاً ... وتأكد يا ماركوس انني ذاهبة عند سيدي ، وسوف اعلمه عن عظم محبتي لك ...

– ولم يستطع ماركوس الا ان يجيب بصوت خافت من شدة الحزن قائلًا : لا يا ليجيا ... انت لا تموتين .. ! فقد وعدني رسولكم الامين ان يصلي من اجلك ، وقد اكد لي ذلك التلميذ الذي رافق المسيح ان سيده يعطف على اتباعه وانه لا يتركهم وحيدين ...

– وعلقت ليجيا على كلامه بقولها : لكن اذكر ايها الحبيب ان المسيح بنفسه صلّى الى ابيه السماوي لكي يرفع عنه هذه الكأس ، بيد ان ارادة الآب كانت ان يشربها . وانت تعلم ان المسيح مات على الصليب من اجلنا ... وها هم اتباعه يستعذبون الموت والاستشهاد في سبيل عقيدتهم ... وعندما داهمنا الجنود خشيت وفزعت في بادىء الامر بيد انني الآن لا اخشى احداً حتى في غياهب السجن لاني اعرف ان المسيح رفيقي ، وهو يقويني ويشدّد عزيمتي ...

سأذهب يا ماركوس الى السماء ، حيث التقي بالمخلّص . فان كان قيصر هو الحاكم في ارضنا فهناك الحكم لابن الله ... وهناك لا نجد تعباً او عناء ، ولا نحس بجوع او عطش ... وان كنت تحبني يا ماركوس فافرح معي اذ سأحصل على هذه السعادة التي تنتظرني ... عدني يا ماركوس ان لا تحزن علي ، وان تجد لك عزاء في مواعيد هذا

السيد الالهية . وعانقها ماركوس ويداه ترتجفان وهتف في اذنها قائلًا : اعدك يا ليجيا . . .

وعلى الاثر بانت حول وجهها هالة من النور فتناولت يده ، وادنتها من شفتيها ، وطبعت عليها قبلة الاخلاص والمحبة وقالت : انا زوجتك يا ماركوس . . .

*

وكان الحراس في الخارج يصخبون ويضجون ، ويسكرون ويقامرون . اما في داخل السجن فقد غمرت الحبيبين موجة من الفرح وعرتهما نشوة صوفية ، تناسيا فيها ظلام السجن ومشاكل العالم حولهما . ولشدما شعرا عندذاك بانهما حملا الى افياء عالم جديد ، واحسا انهما تحولا الى ملاكين طاهرين حلقا الى سماء الخلود والى عالم النور والضياء . . .

الفصل السادس عشر

نهاية بترونيوس والتجارة

شعر بترونيوس في الاونة الاخيرة ان نيرون يحاول التخلص منه والقضاء عليه . وقد استنتج ذلك من ماجريات الاحداث ووقائع الايام . وعندما احسّ بان نهايته قد اقتربت ، فكّر في اقامة وليمة كبيرة يودع فيها اصحابه ودنياه . فعيّن لها موعداً وبعث خدامه الى دور اصدقائه ، يدعوهم الى تلك الحفلة العظيمة التي اعدّها .

وفي ليلة الحفلة ، لبس احسن ملابسه ، وتفقد الوان الاطعمة وترتيب الموائد ، واكاليل الزهر التي ضفرها الفتيان الاغريق لتوضع على رؤوس الضيوف . واشرف بنفسه على الترتيبات الاخرى ليتحقق ان الاستعدادات تامة وكاملة . ثم كتب وصيته وذهب ليستقبل ضيوفه دون ان يظهر شيئاً من الانزعاج او الاضطراب . بيد ان الخدام لمسوا ان شيئاً غريباً كان متوقعاً حدوثه ، لاسيما وان بترونيوس في ذلك النهار اغدق عليهم الهبات والعطايا ، ووعدهم بمكافاءات سخية اذا ما أتقنوا تنظيم الحفلة وضمنوا نجاحها .

وانفرد بترونيوس ببيونيس التي لبست رداء ناصع البياض ووضعت

الريحان بين ضفائر شعرها . فخاطبها قائلًا : انني لم اعتبرك يا يونيس أمة لي طيلة هذه السنين التي اقمتها بين ظهرانينا .

– وتطلعت اليه بعينيها الزرقاوين وقالت : انني لك يا سيدي على مدى الحياة . . .

– قال : لقد وهبتك هذه الدار . . . وهؤلاء الخدام . . . وجميع كنوزي . . . !

– ودُهشت لهذا التصريح فقالت مستوضحة : وماذا تعني ؟

– وسكت قليلًا ثم رمقها بنظرة حنان وقد بدت يونيس امامه كتمثال من المرمر او الرخام ثم قال : اني ارغب ان اموت ميتة وادعة يا يونيس . . . !

وعاد الى ضيوفه وكانوا قد ملأوا القاعة ، ولم يتوقع احد ان تكون هذه آخر وليمة يقيمها بترونيوس . فقد توجّس الكثيرون ان خيوط النقمة التي اخذ يغزلها نيرون لا بدّ لها من ان تمتد الى مستشاريه واعوانه ، وفي مقدمتهم بترونيوس . بيد انه لم يدر بخلد احد منهم بان بترونيوس كان مزمعاً عندذاك على الانتحار .

ولم يظهر بترونيوس شيئاً من الاضطراب اثناء الحفلة بل سعى لادخال البهجة الى قلوب ضيوفه لذلك امر باضاءة المصابيح ، وبملء الموائد باصناف المآكل . ثم جاء بالجواري المغنيات ، وبالفتيات العازفات على القيثار ، والضاربات على الصنوج . واداروا الكؤوس التي ترصعت

بالحجارة الكريمة وطليت بالذهب ، فملأها بالخمور وقدمها للضيوف .

وفي وسط هذه الغمرة من الابتهاج وقف بترونيوس يخاطب المدعوين قائلًا : انني ودعت روما وكتبت كتاباً اخيراً لحاكمها . فهل ترغبون ان تسمعوا ايها الاغزاء ماذا كتبت ؟ ! وعلى الاثر تناول من تحت وسادته الارجوانية الكتاب الوداعي والوصية التي كتبها فقرأ لهم ما يأتي :

اني اعلم يا صاحب الجلالة انك تنتظر قدومي بفارغ صبرك ، لان قلب الصديق انما يتوق لصديقه ليلًا ونهارًا . وانا متأكد بانك مستعد بان تغمرني بجائزتك وعطاياك السخية . . . لكنني اقسم لك باشباح والدتك ، وزوجتك ، واختك اللواتي قتلتهنّ بانني لا استطيع الذهاب اليك . . .

واعلم يا نيرون ان في الحياة كنوزًا ثمينة وانا قد اخذت اثمن النفائس وحصلت على احسن الكنوز . بيد ان في الحياة امورًا اخرى لا استطيع ان اتحملها . فلا يتمرنّ الى ذهنك انني استرحمك الآن لجرائمك ووحشيتك ساعة قتلت زوجتك ووالدتك ، وحرقت روما ، وازهقت حياة الكثيرين من الابرياء . . .

فانا اعلم ان الموت هو ميراث الانسان ولا يمكن ان تتوقع شيئًا منك غير هذه السلسلة من الجرائم والمآثم . انما ما حزّ في نفسي وآلمني كثيرًا هو افسادك ذوقي باصرارك على ان اصغي اليك سنين طويلة الى تلك الانغام المبتذلة ، والشعر الرخيص . . . فقد هبطت بالفن الى اسفل الدركات ، واسفقت في الذوق الفني غاية الاسفاف . فهذه حالات لم استطع احتمالها ، ومن اجل وضع حدّ لها اقدمت على الانتحار . واعلم ان العالم سيسخر بك عندما يسمع منك امثال هذه الاغاني الدنيئة والاشعار المبتذلة . انه افضل لك يا نيرون ان تقتل الناس بالسم من ان

تنشدهم الشعر ، واسهل عليك ان تحرقهم بالنار من ان تعزف لهم على قيثارتك .. وهذه آخر نصيحة ارفعها اليك . . .

وجزع الضيوف عندما سمعوا بترونيوس يقرأ عليهم هذا الكتاب الذي سيرسله الى نيرون ، لانهم ادركوا انه اسهل على امبراطورهم ان يفقد امبراطوريته من ان يسمع انتقادات جارحة مثل هذه توجه الى فنه . . . وقد تأكدوا ان من يكتب مثل هذا لا بدّ ان يتعرّض الى الموت . غير ان بترونيوس لم يضطرب بل ظل يبتسم لضيوفه وقال لهم : لا تجزعوا . . .

وعلى الاثر استدعى طبيبه الاغريقي ، ومدّ له ذراعه ، وطلب منه ان يفصده . ففصده الطبيب فسالت انهار من الدماء ، لوثت الطنافس ، ولطّخت ثوب يونيس الابيض . وعندما شاهدت يونيس سيدها ينزف دماً قالت : اتظن يا بترونيوس انني اتركك ؟ ! هب ان الالهة منحتني نعمة الخلود ، وهب ان قيصر منحني سلطاناً على هذه الارض ، فانا رغم ذلك ساتبعك حيث تذهب . . . ! فابتسم بترونيوس ولمس شفتيها وقال لها : اتبعيني اذن يا عزيزتي . . .

وللحال مدت ذراعها للطبيب ، وطلبت منه ان يفصدها فسالت دماؤها قانية وامتزجت بدم بترونيوس الشهيد . وعلى الاثر عزفت الجاريات انشودة اناكريون الحزينة ، وظل الحبيبان ينزفان دماً ، ملقياً كل منهما بصدره على الآخر الى ان بدا الاصفرار والشحوب يغشي

وجبيهما . وسقط الاثنان جثتين هامدتين على الطنافس المخملية ، والوسائد الحريرية . وتأوه الضيوف عندما شاهدوا الشبحين منطرحين امامهما وهتفوا قائلين : لقد زال ما تبقى في العالم من حبّ وجمال وولاء . . .

*

وصُعق نيرون لدى سماعه بموت بترونيوس . ولم يصدق النبأ المريع بادىء الامر الا ان سينكا اكّد له صدق انتحار بترونيوس .

– فرثاه نيرون واخذ يقول : ايموت بترونيوس بدون اذني فانا لن اغفر له هذا العمل . . . !

– وقال له سينكا : قد ترك لك رسالة وداع ، اعطاني اياها لاسلمها اليك .

– وتناول نيرون الرسالة وقال : ما اوفاه من صديق ! انه ذكرني حتى في ساعاته الاخيرة ! فيا له من مستشار امين ! وصديق وفيّ صميم . . . ! فانت وحدك يا بترونيوس فهمتني . . . واخذ يبكي ويجمع دموعه في اناء فضي . وتابع قوله انني لاذرف الدمع السخين من اجلك – وساحتفظ بهذه الدمع في هذا الاناء الفضي لتعرف الذراري والاجيال ان نيرون حزن على مستشاره وبكاه دمعاً سخيناً .

وعاد نيرون لمتابعة قراءة الرسالة . وكان سينكا يشايعه بنظراته . فعندما وصل الى الفقرة التي تشير الى انتقاد شعره وغنائه امتقع لون

الامبراطور وثارت ثائرته . وعلى الاثر مزّق الرسالة وكسّر زجاجة الدمع واخذ يصرخ ويجلجل قائلًا : احرقوا بيت بترونيوس ! ولا تبقوا منه حجراً فوق حجر ! مزقوا كتبه ! — اقتلوا خدامه وجواريه ! — خرّبوا حدائقه ! — وأزيلوا أي أثر له في هذه الدنيا . . . !

الفصل السابع عشر

كو ڤادس ... الى اين ؟

وبعد بضعة ايام شوهد شخصان يسيران في طريق ابيان . وكان احدهما نزاريوس والثاني الرسول بطرس . ولقد كان بطرس عازماً على ترك روما ليفرّ من وجه نيرون الظالم ، تاركاً وراءه جماعات المؤمنين الذين تعرّضوا لسيف الاضطهاد . وكانت السماء عندذاك تصطبغ بالوان عسجدية جميلة ، وكانت الفيلات المشادة من المرمر والمكتنفة بالاشجار الظليلة تزين جنبات ذلك الطريق التاريخي .

واصطبغت زرقة السماء بخيوط الشمس الذهبية ، فبان الافق فتاناً ساحراً ، ولمعت فوق تلال روما الاشعة القرمزية المنعكسة على الاشجار المغطاة بقطرات الندى ، وعلى الفيلات الناصعة البياض .

وكانت طريق ابيان في تلك الغدوة مقفرة من الغادين والرائحين ، والسكون يخيم فوقها سوى لصوت وقع احذية ذينك المسافرين . وتراءت امام عيني الرسول هالة من النور برقت في السماء وتدانت من الطريق . فبهت لدى مشاهدة هذه الاحداث الخارقة ووقف مشدوهاً ، وخاطب نزاريوس قائلاً : الا ترى هذا الضياء يلاحقنا ؟ !

– اجاب نزاريوس : انني لا ارى شيئاً ...

– ووضع الرسول يـده على احدى عينيه وتطلع في لألأ الشمس ثم قال : يتراءى لي انني ارى طيفاً من بعيد ... !

وشهـد نزاريوس الاشجـار تتاوج وتهتز ، والضوء يغمر الحقول والسهول . والتفت الى معلمه فوجده صامتاً مشدوهاً فقال له : مـاذا يؤلمك او يزعجك يا سيدي ؟ !

وللحال سقطت العصا من يمـين بطرس ، وظلت عينـاه مسمرتين في الافق ، وهما تشخصان الى الامـام . وارتسمت علامات الفرح على

مشهد الرسول بطرس مع نزاريوس وهما يتركان روما ساعة تراءت للرسول الرؤيا السماوية وسمع النـداء كوفاديس

وجهه ، وارتمى على ركبتيه كأنه في نشوة علوية صوفية واخذ يصرخ : ايها المسيح ! ايها المسيح !

ووقع على الارض كأنه يقبل قدمي ذلك الشخص غير المنظور . واستمر الصمت مخيماً على ذلك المشهد لوقت طويل . ثم تحركت شفتا بطرس واذا به يهتف بتلك العبارة التي سمعها اثناء تلك الرؤيا – ويعالي بصوته قائلاً : **كوفادس ... الى اين ... اين انت ذاهب ؟!**

*

وسمع بطرس صوت السيد يقول له بحزن : ان تركت روما فعندذاك سأعود اليها لاصلب ثانية ... وتأثر الرسول من هذا الكلام فسقط على الارض ، ولامس وجهه التراب ، وظلّ صامتاً هادئاً . وظن نزاريوس انه قد اغمي على سيده او فارق الحياة لانه لم يكن قد سمع ذلك الصوت الالهي مثل بطرس ... بيد انه لم يمض وقت طويل حتى نهض الرسول ثانية ، ممسكاً عصاه بيديه المرتجفتين ، ومتطلعاً الى التلال السبع التي خلفه ... وكأن اصداء كلمة كوفادس ما برحت تتماوج في اذنيه ...

وهتف بطرس قائلاً : لنعد الى روما – لان هذه هي ارادة السيد . وعاد الرسول على الاثر الى جماعات المؤمنين الذين تشجعوا لدى رؤيته ثانية . وما اسرع ما اخبرهم بانه شاهد الرب وسمع صوته . وطفق الرسول يتجول من مكان الى آخر متنقلاً من المقابر الى السراديب ليعلّم الذين قبلوا المسيح مخلصاً لحياتهم حقائق ايمانهم ، ومعمداً اياهم بالروح القدس وبماء الحياة الابدية .

ولم تكن الاضطهادات او العذابات لتضعف المسيحيين او تفتّ في عضدهم بل ان كل دمعة ذرفها شهداؤهم ، وكل زفرة خرجت من افئدتهم المكلومة انما كانت اداة لتزايد عددهم ، ومدعاة لتقوية ايمانهم . وفيما كان قيصر يسبح في بحر من الدماء ، وروما غارقة في الظلام ، كنت تجد هؤلاء المضطهدين والبائسين والمعذبين في الارض يقبلون على تفهم البشائر السارة ، ويهرعون الى تسليم نفوسهم الى المخلص الفادي .

اجل ! كنت ترى هؤلاء المسيحيين الاوائل يفيضون بشراً وفرحاً ويعيشون بمحبة واخوة من جراء قبولهم المسيح ، وتسليم دفة حياتهم اليه . وتحقق بطرس مع غيره من جماعات المؤمنين انّ لا قيصر او فيالق الامبراطورية تستطيع ان تخنق تلك البذور التي اخذت تنمو وترعرع ، وانه ليس في وسع الدماء او الدموع او الاساطيل او الجيوش ان تحقق الانتصارات للامبراطورية بقدر ما حققته بين جماعات المسيحيين المضطهدين بذور الايمان والرجاء والمحبة بالمسيح .

وادرك بطرس السبب الذي من اجله دعاه الله للعودة الى تلك المدينة الخالدة ، اذ قدّر لهذه المدينة بالاضافة الى تزعمها سيادة العالم الزمنية ان تكون ينبوعاً فيّاضاً للقوى الروحية ، ومركزاً لانطلاق الدعوة المسيحية . . .

الفصل الثامن عشر

اضطهاد المسيحيين واستشهادهم

واقترب اليوم الذي فيه رتّب نيرون مذبحة المسيحيين . فقد خصص ساحة الامفيثياتر الكبير لتعذيب هؤلاء المنكوبين ولاستشهادهم . ولذلك غدت الجماهير تحتشد بالقرب من المكان ، مترقبة ميعاد فتح الابواب ، ومصغية بدهشة الى زئير الاسود ، وعواء الكلاب . وكانت هذه الوحوش الكاسرة قد تُركت بضعة ايام بلا طعام لتصبح ضارية كاسرة من شدة الجوع .

وتصاعدت على مقربة منها اصوات الترانيم الشجية المنبعثة من حناجر المسيحيين المعتقلين في ظلمات السجون . وما ان دنا الوقت لفتح الابواب حتى علا الضجيج بين الغوغاء اذ اخذوا يتحدثون عن شراسة الاسود ، وعن قوة المصارعين ، وعن تلك الضحايا التي ستقدم للوحوش الكاسرة .

وسار الموكب بانتظام ، فظهرت في الطليعة فرقة المصارعين المؤلفة من خمسة وعشرين مصارعاً ، وكانت اجسامهم العارية تلمع بما طُليت به من زيوت ، وعضلاتهم المفتولة تنمّ عن شدة القوة وصلابة العود . وتبعهم

جماعة من الرجال الاشداء ، الذين كانوا يحملون الاسواط لارهاب ظهور المتقاعسين من المتصارعين . وخفت بهم صفوف المركبات المحملة بالتوابيت الخشبية . واخيراً جاء الرجال المناط بهم حفظ النظام ، ومراقبة الجماهير . واندس بينهم العبيد الذين حملوا صنوف الاطعمة والوان المشروبات . وبرزت في مؤخرة الموكب كوكبة من الجند البريتوري الذين تولوا حراسة الامبراطور وحاشيته .

وما ان فتحت ابواب الامفيثياتر حتى هرعت الجماهير لتملأ المقاعد . وتهيجت الوحوش لدى سماعها هذا الضجيج المتعالي ، فاشتد زئير الاسود الكاسرة ، وعواء الكلاب الضارية . ودخل الاشراف والنبلاء وجلسوا في المقاعد الامامية وكانوا يرتدون الالبسة البيضاء . وتبوأ الامبراطور فوق عرش نُصب فوق منصة مرتفعة وهو يلبس تاجاً من الذهب مرصعاً بالحجارة الكريمة . وجلست الامبراطورة عن يمينه ، وحولها احتشدت عذارى ڤستا ، والقواد ، ورجال الدولة . وكانت باقات الزهر واغصان الكرمة تزين أعمدة المدرّج ، ومداخل الامفيثياتر .

وملأت عامة الشعب المقاعد الخلفية ، وهم يقهقهون ويتراشقون بالنكات ، ويضربون بارجلهم الارض للاسراع في عرض هذه المشاهد المنتظرة . وظهر فجأة مدير المسرح وهو يلوّح بمنديله كعلامة للبدء بالاستعراض . ونفخ احد الجنود بالبوق فتطالت اليه الاعناق . وخيم الصمت على المكان واتجهت الابصار الى الباب الذي يخرج منه

المتصارعون . وللحال ضرب احد الجنود الباب بمطرقة ثقيلة ثلاث ضربات داعياً هؤلاء الابطال الى حومة الميدان . فظهرت ثلة من المتصارعين المدججين بالسلاح . وما ان وطئوا ارض الساحة حتى ساروا بانتظام مواجهين الامبراطور فحيوه وهتفوا بحياته . ثم تفرقوا في ارجائها متخذاً كل منهم مكانه المناسب . وعلى الاثر بدأوا يتصارعون ويتقارعون ويظهرون براعتهم في استعمال اسلحتهم ، والتغلب على خصومهم . واستمروا في استعراضهم هذا حتى لم يتبقَ في الميدان من الخمسة والعشرين سوى رجل واحد .

وعلى الاثر دخل العبيد فنقلوا الجرحى والموتى ، ونظفوا الساحة من اثار القتال . ونثروا كتل الرمال فوق بحيرات الدماء . وخفّ بعض الغلمان لنثر الازاهير والرياحين .

وما ان انتهى المشهد الاول حتى تعالت الاصوات : المسيحيون — المسيحيون !! وهكذا جاء الان دور هؤلاء المنكوبين . وعندما فُتح الباب اندفعت منه جماعات غفيرة من الرجال والنساء الذين كانوا ملفوفين بجلود الوحوش . وسيق هؤلاء الى وسط الميدان حيث خرّوا على ركبهم ، ورفعوا رؤوسهم الى العلاء . وادرك المتفرجون انهم يصلّون ، فاخذوا يصفّرون لهم ، ويسخرون منهم ، ويرشقونهم بنفايات الطعام وزجاجات الشراب الفارغة . ولم يرق للغوغاء هذا المنظر الهادىء فصرخوا الاسود ! الاسود !

ووسط هذه الجلبة ارتفعت اصوات المسيحيين بنشيد عذب جميل ، اذ انشد هؤلاء المستهدفون للموت نشيد الرجاء بيسوع . وكان هذا أمراً مستغرباً وعجيباً ، اذ لاول مرة سُمعت امثال هذه الترانيم تنشد في الامفيثياترات الرومانية . وادرك الجمهور انه لم يقصد من هذه الترانيم طلب الرحمة من الامبراطور ، بل كانت شهادة صارخة على مسيحيتهم واعترافاً صريحاً بعقيدتهم .

ولم يطق الجمهور رؤية هؤلاء الراكعين بخشوع امامهم لذلك طلبوا الاسراع باطلاق الوحوش الكاسرة عليهم . ففُتحت الابواب وأُخرجت اولاً الكلاب الضارية التي بدأت تنهش تلك الضحايا البشرية . ولما انتهى دور الكلاب جيء بالاسود لتقضي على البقية الباقية منهم . وسالت الدماء من الاجسام كالانهار ، وذهبت نفوس الابرياء قرباناً على مذابح الاستشهاد .

وتفشت في الجماهير حمى الانتقام ، وثارت طبيعتهم الحيوانية لدى رؤيتهم هذه المشاهد الدموية . فكنت تراهم ينتصبون من مقاعدهم ، وهم متشوقون لمشاركة الوحوش في ازهاق نفوس تلك الضحايا ، وتمزيق الاجسام والابدان . وشوهد الرسول بطرس جالساً في احدى الزوايا البعيدة ، وهو يراقب تلك المآسي بنفس مرّة حزينة . وكان بين الآن والآخر يرفع الصليب الذي كان يخفيه في ردائه ، ويبارك اولئك الابطال الذين ذهبوا ضحية الظلم الغاشم ، وشهداء المبدأ والعقيدة .

ودانت من الشهداء التفاتة اليه ، فعلت شفاههم ابتسامة الفرح ،

وتشجعوا عندما شاهدوا صليب مخلصهم يلمع امامهم في لحظاتهم الاخيرة. وانفطر قلب الرسول حزناً عليهم فصلى قائلاً : لتكن يا الهي ارادتك ... فهؤلاء قطيعي الذين امرتني برعايتهم - فانا اسلّمهم اليك . فاشفِ جراحاتهم ، وخفّف اوجاعهم ، وامنحهم سعادة ابدية بعد هذه العذابات الاليمة .

*

- وغضب نيرون لدى رؤيته هؤلاء المسيحيين غير جزعين وقال : اليست وقاحة صارخة ان يستمر هؤلاء بالترتيل ؟ ! كان الاولى بك يا تيجليوس ان تجلدهم وتسومهم اقسى صنوف العذاب لتكمّ افواههم وتخمد انفاسهم ...

- ورغب تيجليوس ان يهدىء من روع الامبراطور فسأله ان كان يرغب في مشاهدة مأساة ماركوس وليجيا ؟ !

- اجاب نيرون : اجلبهما مع اشد الاسود شراسة وجوعاً ...

- وربتت پوپايا على كتفه وقالت : اني ارغب في ان احتفظ بماركوس ، وحبيبته ليجيا ، لبرنامج الغد حيث افاجئكم بشيء طريف جديد . وانت تعلم باني كنت دوماً عند حسن ظنك عندما اعددك بمسرات جديدة كهذه .

وعندما انتهى برنامج ذلك اليوم ، اخذ بطرس يتجول بين المسيحيين المسجونين . ليشجع عزائمهم ويرفع من معنوياتهم ، فقال لهم

ان المسيح سلّم نفسه للعذاب والموت فلا تجزعوا ، لان الحياة تنتظركم الآن ، فانتم ستكونون برفقة المسيح . واعلموا ان رحمة السيد واسعة تمتدّ الى السماء ، وهي تغطي الجبال والبحار ، وتملأ كل مكان وليس لها نهاية . وسوف تذكر الاجيال ان فوق تربة روما المروية بدماء الشهداء تجلّت امجاد كنيسة المسيح — تلك الكنيسة التي ستظل خالدة حتى نهاية العالم .

وشاهد بطرس بنفس كئيبة اخوانه المؤمنين يساقون الى ساحات الاستشهاد ، وكان يسمع اصواتهم وهم يهتفون اوصنا... ! ولطالما ردّد معهم هذه العبارات المشجعة : اهتفوا له ليفتح ذراعه ويحتضنكم — اهتفوا لاستقبال سيدكم ومخلصكم — اهتفوا له فانه ملك الملوك ورب الارباب .

الفصل التاسع عشر

افتراء ماركوس بلبيا

واضاء القمر على ساحة الامفيثياتر ، مرسلًا اشعته الفضية على تلك البقعة التي جرت فيها تلك المجزرة المروّعة . وكان العبيد قد بادروا الى تنظيف الميدان ، ونثر ارض ساحته بالرمال ، لازالة اثار الدماء منها . بيد انه لا شيء يستطيع ان يمحو ما سجله التاريخ عن تلك القساوة البربرية التي لحقت بجماعات المسيحيين عندذاك .

وعندما خيّم الظلام قدم الساحة شخصان ملثمان يتقدمهما نفر من الحرس البريتوري الحاملين الاضواء والمصابيح . وكان نيرون احد هذين الشخصين اذ قدم بصحبة رئيس حرّاسه ليتفحّص المكان ، ويشاهد عن كثب الضحايا الموقوفين ، واصناف الوحوش الكاسرة المستجلبة للعمل البربري المعيّن لليوم التالي . ورانت من الامبراطور التفاتة الى بطرس وهو في السجن فلاحظ انه يتمتع بصفاء نفس وسكينة بال .

– فقال نيرون لتيجليوس : يخيل اليّ انه من العار علينا ان يموت احد هؤلاء المسيحيين والابتسامة على شفتيه ...

– اجابه : قد يكون هذا الذي يبتسم هو زعيمهم المدعو بطرس ،

ولطالما سحرهم بكلامه وبمواعيده . وتفرّس فيه نيرون ثم قال : الافضل ان يعطى هذا الزعيم عقاباً فريداً في نوعه .

وكان بطرس جالساً في احدى نواحي الغرفة مع باقي المسيحيين السجناء ، بينما كان ماركوس يتكىء على الجدار ويمسك ليجيا بيمينها . وتعالت الاصوات ، وتصاعد النحيب من افواه بعض النساء والاطفال . فهذه ارملة تفتش عن ولدها الذي انتزعوه من احضانها . وهذه امّ تبكي اطفالها الذين تُركوا لوحدهم بدون اي معيل ... ولكي يعيد الرسول شعاعة الرجاء الى قلوبهم اخذ يخاطبهم بهدوء قائلاً :

يا اولادي : انني شاهدت سيدكم يسمّر بذراعيه على الصليب فوق تلة الجلجثة ... انني سمعت باذني دوي مطارقهم وهم يقومون بعملية الصلب المريعة ... وكانت ارادتهم ان يرفعوا الصليب عالياً لكي يراه الناس من بعيد ، ويشاهدوا ابن الانسان يعاني ألم الموت الرهيب ... تباً لهم من قساة ! فقد طعنوا جنبه بالحربة وساموه افظع صنوف العذاب ... ولدى عودتي من ظلال الصليب صرخت مثلكم : لماذا سمحت بهذا ايها الاله ... ؟ ! ولماذا رضيت له بهذا العذاب لتصدّع به قلوب اتباعه ... ؟ !

بيد ان شعاعة الرجاء عادت تملأ حياتنا عندما تأكدنا ان سيدنا قد قام من الموت في اليوم الثالث منتصراً على الجحيم . وقد شاهدناه بيننا اذ ظلّ يتراءى لنا بشخصه النوراني حتى دخل الملكوت السماوي بمجده العظيم . وهكذا تقوّى ايماننا به ، ومنذ تلك الساعة ونحن ننقل هذه البشائر السارة الى العالم معلنين ان يسوع حي ، وانه يرافقنا في شدائدنا واضطرابات حياتنا .

فلا تظنوا الآن ان الموت ينتظركم بل تأكدوا انكم ستحظون بالحياة ...

فليست هذه التي امامكم عذابات ودموع بل هي مسرات وابتهاجات . . . لانكم ستتحررون من عبودية هذا العالم ، اذ تحصلون على حرية لا نظير لها . وليعلم جميع الذين يموتون بالمسيح انهم سينهضون ، وسينتقلون من ظلام الليل الى ضياء السماء . فارفعوا نفوسكم الى العلاء ، ولتمتلىء قلوبكم بالرجاء . . .

*

وحالما رفع يده ليباركهم ، شعر الجميع بان قوة علوية حلّت فيهم ، ودماً جديداً جرى في عروقهم . لاسيما وقد ادركوا ان الذي نطق بتلك الكلمات كان التلميذ الذي حظي برفقة السيد له المجد وانه احد الرسل الذين حلّ عليهم الروح القدس يوم الخمسين .

وعندما انتهى بطرس من كلامه تطلعت ليجيا الى ماركوس باستحياء وهمست في اذنه قائلة : اريد ان اكون زوجة لك يا ماركوس وها هو الرسول بطرس معنا ، وفي وسعه ان يربطنا بالرباط المقدس . ورغبتي ان يتم عقد زواجنا على يده قبل ان يأخذونا من هذا المكان لنكون دوماً متحدين معاً .

– اجابها ماركوس : لقد لمست فيكم قوة الايمان العجيبة ايها المسيحيون . . . بيد ان هناك اسراراً كثيرة ما برحت غامضة عليّ في دينكم . وانت لا تريدين مني التمويه وقبول هذا الدين الجديد ادعاء ورياء . فقد اتضح لي الآن ان المسيح هو مصدر تعزيتكم حتى في وسط الشدائد والاضطهادات .

اجابته ليجيا : ليتك يا ماركوس تدرك معنا اسرار ديننا .

فالمسيح مصدر رجائنا . ونحن لا نعتبر الموت نهاية كل شيء بل هو بداية لحياة جديدة . انه تغيير من حياة دنيئة ، وانتقال الى سعادة ابدية . تأمل في هذا الدين الذي يجعلنا نحب اعدائنا . . . ويحملنا على تطهير نفوسنا من الآثام . . . ويعدنا بالحياة بعد الموت . .

ووقف ماركوس موقف المتردّد لكن ليجيا هتفت قائلة : المسيح حي فينا يا ماركوس . . وانا متأكدة انك تشعر بوجوده . . . وتناولت ذراعه ، وسارت به الى حيث الرسول بطرس كان جالساً . وركعت امامه وقالت : ارغب ايها الرسول الامين ان تربطنا بالرباط المقدس في هذا السجن وقبل ان نساق الى الموت . وتطلع بطرس في وجه ماركوس وقال : ان الزواج سرّ مقدس . فان كنت عازماً على ذلك يا ماركوس . فتقدم الآن لتتناول بركة الله .

وعندما تأكد بطرس من اخلاص الاثنين تناول يدي المحبين المسجونين والصقهما ببعض ، ومن ثم بارك لهما هذا الرباط المقدس . وفيما كانت حفلة الزواج البسيطة تتم في غرفة السجن المظلمة كانت الامبراطورة پوپايا تتجول بين اقفاص الحيوانات الكاسرة صحبة احد ضباط الحرس البريتوري . وكانت تتفرس في كل قفص ، متفحصة تلك الوحوش الضارية ، الى ان وقفت اخيراً امام قفص ثور كبير كان قد جيء به من بلاد جرمانيا .

وحالما شاهد الثور نور المصباح برقت عيناه وتحركت قرونه

وبدأ يتهيّج ويخور . . . وكأنّ الامبراطورة وجدت في هذا الثور ما يروي ظمأها ويطفىء نيران حقدها . فتمتمت قائلة : لا بدّ ان يكون مشهد صراع هذا الثور مجلبة لمسرة الامبراطور . وقبل ان تترك المكان خاطبت الثور قائلة : يبان لي يا صديقي الاسود انك عابس ومضطرب لكن لا تحزن فغدا اقدم لك ضحية مناسبة لتصارعها . وصكت على اسنانها وهي تلمس قرون الثور من وراء القضبان . ثم سارت في طريقها تفكر في خططها الشيطانية وترتيباتها الفظيعة .

الفصل العشرون

صلب بطرس

واخيراً دنت ساعة استشهاد بطرس التي طالما توقعها هذا التلميذ الامين . فدخل على الاثر الى سجنه جنديان قاداه الى احد الضباط . فلما مثل بين يديه سأله الضابط المسؤول : هل انت هو بطرس ؟ ! اجاب : نعم انا المدعو سمعان بطرس .

وفضّ الضابط كتاباً كان بيده وقرأ منه صورة الاتهام . فقد أتهم هذا الرسول بانه يدعو الى الثورة ، والى نقض الحكم الامبراطوري والى عدم الاعتراف بالوهية الامبراطور . ومن اجل ذلك فقد صدر عليه الحكم بان ينقل الى تلة الفاتيكان حيث القى اولى عظاته هناك فيصلب عليها ، ويكون عبرة لغيره من المسيحيين .

وتعرّض الرسول اولاً الى الجلد كما كانت العادة المتبعة عند الرومانيين ، ثم سيق الى تلة الفاتيكان حيث كان الصليب بانتظاره . ودُهش الجنود الرومانيون لرؤيتهم الحشد الغفير من الناس يصطفون على جنبات الطريق المؤدية من السجن الى الفاتيكان . وكان ظنهم ان اعدام رجل مسيحي غريب لا يثير استغراب الجماهير الا انهم ادركوا

ان هذا كان زعيم جماعة لم يكن ليستهان بها . فعدد المسيحيين كان في تزايد مستمر . وهؤلاء هرعوا ليرافقوا زعيمهم في ساعاته الاخيرة .

وانتصب بطرس وسط الجماهير وكان هادىء البال ، لا يبدو عليه اي قلق او اضطراب . وقد اشرق وجهه ، وعلت شفتيه ابتسامة الظفر . فهو ليس بالمجرم الذاهب الى الموت بل هو الظافر السائر في موكب النصر . وهكذا سار هذا الصياد الجليلي بين الجموع برأس مرتفع ، وكانت الهمسات حوله تتجاوب بانه ذاهب ليلاقي سيده على الصليب .

واستغرب العبيد كيف يذهب هذا الرجل الغريب مبتسماً الى الصلب ، في حين ان المؤمنين ادركوا مصدر القوة التي تحصّن الرجال الصالحين من اتباع يسوع – وهم في طريقهم الى ساحات الاستشهاد . فبطرس قد رافق المسيح ، وادرك محبته ، وعرف مبادئه . وقد كان على مثل اليقين ان الحق الذي اعلنه سيده سيملأ الارض ، وان بشارة الخلاص التي دعا اليها ستمتدّ الى شعوب الارض قاطبة .

وتطلع بطرس من فوق تلة القاتيكان التي اختيرت مكاناً لصلبه ، الى الهياكل العديدة التي بنيت لآلهة روما فقال : عما قريب تتحولين ايتها الهياكل المتعالية الى معابد للمسيح . ورانت منه التفاتة الى الجماهير المحتشدة فقال : ان اولادكم سيكونون خداماً للمسيح ... وناجى سيده وقال : لقد امرتني يا سيد ان افتح هذه المدينة العظيمة ،

فها انا اتغلب عليها عن طريق هذه البذور المقدسة التي غرستها في تربتها .

وخفّ المؤمنون من جوانب نهر التيبر ، واشتركوا في الموكب . وخشي الضابط المسؤول ان يزداد عدد المتظاهرين بحيث لا يقوى الحراس عن حفظ الامن بينهم . بيد ان هذا الضابط تعجّب كيف انه لم تبدُ علامات الغضب والانتقام على وجوه هؤلاء الناس ، اذ كان الجميع مأخوذين بروعة تلك الحادثة فبدوا هادئين . . . ولا شك ان كثيراً من هؤلاء تذكروا آنذاك حادثة موت المسيح وصلبه . وكيف ان الارض تزلزلت ، والعجائب حدثت ، فظنوا انه لا بدّ ان تحدث عند موت هذا الرسول عجيبة اخرى من السماء . وتوقع البعض الآخر عودة المسيح كما وعدهم ، لذلك كانوا في حالة انتظار مسلّمين نفوسهم الى رحمة القدير .

وعلى تلة الڤاتيكان حفر الجنود ثقوباً في الارض ليثبتوا فيها خشبة الصليب . ثم استحضروا المطارق والمسامير ، وانتظروا ريثما تتمّ جميع الاستعدادات لينفّذوا عملية الصلب في زعيم المسيحيين هذا . وكانت الجماهير واجمة كأنّ على رؤوسها الطير . وعاد بطرس فتطلع الى المدينة وقال : انّا نموت من اجل ان تخلصي يا روما ومن اجل ان تنتشر روح المسيح فيك . . . ها ان امواجاً من البرابرة سيجتاحون ديارك ويقوضون معالم حضارتك . . . ولسوف يجيء قياصرة ويذهبون ، الا ان مملكة

المسيح ستظل ثابتة وصامدة على مدى الاجيال ...

ومالت الشمس الى الغروب ، وملأت الافق بالالوان الارجوانية والحمراء . وكان بطرس راكعاً على الارض يصلي بحرارة ، فتقدم منه الجند ليرفعوه على خشبة الصليب . وعندذاك نهض ورفع يمينه ورسم علامة الصليب مباركاً مدينة روما حتى في ساعة استشهاده . وختم صفحة حياته الارضية وهو ينطق بهذه الكلمات : (Urbi et orbi !)

مباركة انت يا مدينة العالم ...!

الفصل الحادي والعشرون

المسجونة بصلبوته . . .

اكتظ الامفيثياتر الكبير في اليوم الثاني بالمتفرجين . وعندما دخله الامبراطور فُتحت الابواب المؤدية الى سجون المسيحيين المعتقلين . وما اسرع ان سيقوا الى الساحة زرافات ووحدانا وقد حملوا صلبانهم على اكتافهم ، فناء الشيوخ تحت اثقالها ، ورزحت النساء تحت هذه الاحمال .

وزيّن هؤلاء الشهداء الشجعان اعواد صلبانهم باكاليل الزهور ، بيد ان الجنود لم يطب لهم مثل هذا ، لذلك اخذوا يضربون هؤلاء بالسياط دافعين اياهم الى تثبيت تلك الصلبان الخشبية في الحفر المعدّة لها . وحُكم على هؤلاء الذين لم يطرحوا امام الوحوش الكاسرة ان يموتوا صلباً على مشهد من الجماهير المتعطشة للدماء .

وما اسرع ما قبض العبيد على هؤلاء التعساء فجردوهم من ثيابهم ، ورفعوهم على الاعواد ، بعد ان اخذوا يثقبون ايديهم وارجلهم بالمسامير . وتجاوب الامفيثياتر باصوات المطارق التي ازعجت الامبراطور ، الذي كان عندذاك يتجاذب الوان الاحاديث مع كاهنات الآلهة قستا ، وافراد حاشيته .

وعندما انتصبت هـذه الصلبان انعكست اشعة الشمس على رؤوس واذرع هؤلاء الشهداء . وبانت في وسط الامفيثياتر بقعة قاتمة نثرت عليها الرمال الصفراء غشتها غابة من الصلبان ، وتدلّت منها الرؤوس المنحنية وتراءت فيها العيون الشاخصة الى العلاء ، كأنها في مناجاة . وكنت ترى الشفاه تتحرك مصلية الى رب السماء .

وخيم الصمت فوق هذا المشهد لان الغوغاء رغم تعطشها للدماء ، وشغفها بهذه المشاهد البربرية لم تستطع الا السكوت والوجوم امام سعة صدور هؤلاء الشهداء .

الانسانية تتلوّث بدم الشهداء ، والعدل الروماني يتلطخ بصلب الابرياء

– ورانت من نيرون التفاتة الى بلوتيوس وهو معلق على احد الصلبان فقال : اخالني اعرف هذا الشخص المصلوب ...

– اجابه احد رجال حاشيته : انه القائد بلوتيوس الذي افتتح مقاطعات الشمال وضمها لامبراطوريتنا يوم كنت يافعاً ايها الامبراطور !

– وعلّق تيجليوس على هذا بقوله : لقد مهّدت روما له سبيل الشهرة ، انما هو كافأها بالخيانة ...

– وقهقه نيرون ضاحكاً وقال : يا لها من تمثيلية رائعة ! فانّ هذا القائد يجابه الآن اولى انهزاماته بعد تلك السلسلة من الانتصارات الباهرة ... ليتني انظم قصيدة فريدة في ذلك ... !

ورفع بلوتيوس وجهه قليلاً ، وتفرّس في تلك الجماهير الزاخرة وقال :

يا شعب روما ! انا اولوس بلوتيوس الذي كنت فيما مضى قائد جيوشكم المظفرة . اعلموا الآن ان بلادكم يحكمها اضرى الوحوش واحط الحكام . فهو يدّعي ان المسيحيين هم الذين احرقوا مدينتكم ... انه يكذب عليكم ويخدعكم ... اذ انه هو الذي امر بحرقها . وها هو يقدم على قتل هؤلاء الابرياء ليوهمكم بانه بريء ، وانه يقتص لكم من المجرمين . تأكدوا ان نيرون وحده هو المجرم وهو الذي يستحق سخطكم وانتقامكم ...

قال هذا ولفظ انفاسه الاخيرة وهو معلق على خشبة صليبه . واستشاط نيرون غضباً لدى سماعه مثل هذا الكلام اللاذع ، فقدحت

عيناه شرراً ولم يدرِ ماذا يفعل ؟ ! وباي اسلوب ينتقم ! ؟ وتعالى صوت من ناحية ثانية يقول : ان هذه المشاهد لوصمة عار على العدالة الرومانية ! وهتف ثالث ليس لدينا الا الجنرال غالبا لينقذ الموقف ويخلصنا من هذا السفّاح المجرم !

ولم يستطع نيرون الانتظار فاعطى اشارته باحراق الضحايا . فنفخ الجند بالبوق ، وللفور هبّ المأجورون لحمل مشاعلهم واذكاء النار بالصلبان وبالضحايا المسمَّرة عليها . وتأججت النيران ، واشتعل اللهيب ، وانتشرت رائحة الشواء في ارجاء الامفيثياتر حتى فسد الهواء . وتعالى الصراخ بين الغوغاء ، وعمّ الضجيج بينما نفوس الشهداء كانت مطمئنة وقد انهوا حياتهم الدنيوية بترنيمة دينية مثيرة . . .

واستشهد جميع المسيحيين المعتقلين ولم يبقَ على قيد الحياة سوى ليجيا ، ماركوس ، واورسيوس . وكانت الامبراطورة قد استبقتهم للمشهد الفظيع الذي اعدته لهم . وكان اورسيوس يتسرق النظرات من سجنه ليرى ماذا يجري في الامفيثياتر . فشاهد بامّ عينه استشهاد بلوتيوس وغيره من المسيحيين الاوفياء . . .

بقي اورسيوس في سجنه ينتظر مصيره ، وفجأة دخل عليه بعض الجنود فاستاقوه امامهم ثم طلبوا من ماركوس ان يتبعه . وألقت ليجيا ذراعيها حول عنق زوجها وقالت : لا نريد ان نفترق يا ماركوس ! بيد ان جندياً سحبها عنه بعنف وقسوة ، وابعدها عنه . وعلى

الاثر دخلت ثلاث جاريات من العبيد الضخمات يحملن اكاليل الزهور وقطعة من القماش الابيض الشفاف . فعرّين ليجيا من ملابسها ولففنها بتلك القماشة البيضاء . ثم وضعن الاكاليل على رأسها ، وانتظرن الاشارة من داخل الميدان ، اذ كان قد حُكم على هذه الفتاة ان تمثل دوراً جهنمياً رتبته پوپايا لها . . .

الفصل الثاني والعشرون

اورسيوس يصارع مع الثور

خيّم الليل على روما ، فاضي الامفيثياتر الكبير بالمشاعل والمصابيح . واستعدّ الناس لحضور المشهد الطريف الذي اعدته الامبراطورة لتسلية الجماهير في تلك الليلة ... وعندما حان الوقت سيق ماركوس مكتوف اليدين امام عرش نيرون ، وهناك ربط الى عمود بحبال قوية . وحدجته بوپايا بنظرة تشفٍ وانتقام ، وقالت للامبراطور : هذ هو زائرنا المحترم يا سيدي !

– وسأل نيرون : لمَ لم يدفع ماركوس الى الميدان لينال عقابه .

– اجابته : انه سيعرض هناك وشيكاً .

ولوّح العريف بمنديله الاحمر فاذا الحراس يفتحون الابواب ، ويسوقون اورسيوس الى الميدان . ووقف هذا الجبار مذهولاً ومشدوهاً واخذ يجيل بابصاره في نواحي الامفيثياتر ، منتظراً مصيره . واندهشت الجماهير لرؤية هذا المصارع القوي ، المفتول العضلات ، الصلب العود ، والقوي البنية . ولطالما شاهدت الجماهير مصارعين اشداء لكنهم لم يشهدوا شخصاً يضاهيه

في الضخامة والقوة . وخُيّل اليهم انهم يقفون امام تمثال الكولوسيوس العظيم ... !

وما هي الا لحظات حتى برز ثور ضخم من احد ابواب الامفيثياتر . وكان يحمل على رأسه ليجيا التي لُفّت بالقماشة البيضاء. ووضعت بين قرني ذلك الثور الهائل . واستولت دهشة على نفوس النظارة ، وخيّم السكون في ارجاء المكان . واشاح ماركوس بنظره الى الميدان فصُعق عندما شاهد ليجيا بين قرني الثور . فزفر وقال : اني اؤمن بعجيبة من المسيح ! وما كان من اورسيوس عندما شاهد هذا المنظر المريع الا ان هجم على الثور وامسك بقرنيه ، وصبّ كل قوته الجسمانية في ذراعيه ، منيخاً بكل ثقله على الثور ، فخارت قوى الوحش وغرزت اقدامه في الرمال ، وتلوّى جسمه كالطابة ، ولامس رأسه التراب .

ودهش الناس من هذا المنظر اذ هم لم يشهدوا مشهداً نظير هذا منذ تأسيس روما . وامر تيجليوس بان يجرّب اورسيوس قوته مع الثور . فظل هذا المصارع يضغط على عنق الثور حتى سُمع خواره من بعيد . ومن ثم ألوى رأسه ، وقصف عظامه ، فانثنت اقدامه وتقطعت انفاسه ، فوقع جثة هامدة على ارض الميدان . وعلى الاثر قطع اورسيوس الحبال التي كانت تربط ليجيا ، ووقف ينتظر حكم النظّارة ..

وتصبّب العرق منه حتى سال على ساعديه وكتفيه العاريتين ، وكاد ان يقع مغشيًّا عليه من شدة الاعياء. والاجهاد لولا ان انعشت

تعواه هتافات دوّت بها الجماهير طالبة العفو عنه . وكأنّ الجمهور لم يشهد منذ بدء الاستعراضات مشهداً اروع من هذا ، فقد سحرت قوة هذا الجبّار اعين النظارة لذلك ظلوا يصرخون طالبين اطلاق سراحه . وهزّتهم كذلك الشفقة لدى رؤيتهم الفتاة الجميلة النحيلة ليجيا معرّضة لمثل هذه العذابات ، فرثوا لحالها وشفقوا عليها .

وتردّد الامبراطور في بادىء الامر من اصدار حكم العفو عن هؤلاء . فلم يكن له موجدة خاصة ضد ماركوس او ليجيا لكنه كان يسرّ برؤية امثال هذه المشاهد الدموية ، وكان يجد لذة خاصة في التمتع بامثال هذه العذابات البربرية . اما الجماهير فما برحت تصرخ من اجل العفو عنهم ، وكأنهم رغبوا في انتزاع عناصر الرحمة من قلبه انتزاعاً . واجال نيرون بصره بينهم عساه يجد جماعة تنكس ابهاماتها ، اشارة الى طلب تنفيذ الحكم بهؤلاء التعساء .

ودبّت في ماركوس قوة علوية خارقة جعلته يقطع الحبال التي قيّدته . فقفز الى الميدان ووقف بالقرب من ليجيا . ثم رفع ابصاره الى الجماهير المحتشدة كاشفاً لهم عن اثار الجراح التي ملأت جسمه والتي تلقاها في حروبه المظفرة لبلاده . وعلى الاثر دوّت الاصوات وجلجلت ، طالبة الرحمة وداعية للافراج عن هؤلاء . . .

ورفع ماركوس يده واشار الى نيرون ثم خاطب الجماهير قائلاً :

هذا هو الرجل الذي حرق مدينتكم ، وقتل ابرياءكم . . . اعلموا ان حكم هذا الطاغية قد انتهى اذ ان روما اصبحت لكم ثانية . . . فهذه الليلة

ترحف جيوش الجنرال غالبا من الشمال لتحرير روما . وها هو جيشكم الباسل ينهض ثانية للوقوف في وجه الظلم والاستعباد . فليعش غالبا – الامبراطور الجديد لروما .

ورجّعت القاعة دويّ الهتافات ليعش غالبا !! الموت لنيرون حارق روما !!

وفجأة برزت فرقة من الجنود الذين كانوا يحاربون في الفيلق التابع لماركوس ، وهجموا على نيرون واعوانه فتراجع الحرس البريتوري عندما شاهدوا الجنود شاكي السلاح . وترك نيرون عرشه وهرع الى الغرفة الخلفية من المدرّج طالباً النجاة . وتركته حاشيته التي انضمت الى الجماهير هاتفة بحياة غالبا .

ولحق تيجليوس بنيرون عساه يجد هو ايضاً سبيلاً للنجاة والفرار . فاعترضه جندي ، وضربه بسيفه ضربة اسالت دماه . وصرخ القاتل وهو يطبق عليه قائلاً : خذ هذه الضربة حامية من سيف بلوتيوس الشهيد !

الفصل الثالث والعشرون

نهاية نيرون وموته

وفرّ نيرون من وجه الغوغاء ، والتجأ الى قصره صحبة بعض العبيد ، وافراد الحاشية . وكانت القاعات مهجورة ، سوى من بعض افراد الحرس البريتوري . وجزع نيرون كثيراً وبدا الخوف ينعكس على ملامحه ويشيع في كيانه . فاخذ يعدو من غرفة الى اخرى مفتشاً الزوايا ومتوجساً شراً في كل مكان . والظاهر ان حوادث الليلة الماضية ساقته الى آخر مرحلة من مراحل جنونه واضطراب نفسه .

ولشدّ ما بدأ يصرخ وينادي تيجليوس – سينكا – فيون – اين انتم ؟ ! اين الحراس والجند البريتوري ؟ ! واخذ يفكر في طرق يسترضي بها الجنود ، ويشتري بها ولاء المواطنين . فظن انه في الوسع درء هذه المخاطر عن طريق خلق مشاهد تسلية جديدة او اعطاء وعود مغرية للجماهير . واخيراً القى بنفسه على كرسي عرشه حيث اخذ يهجس ويفكر ... وفجأة شوهد ينهض ويأخذ بالعدو كأن اشباحاً تطارده . وامر عبيده بان يسلّحوا النساء بقصد تقوية جهاز الدفاع عن القصر في حالة افتقارهم الى الرجال ، متخيلاً اولئك الامازونيات الباسلات وهن

يحارب بشجاعة وعزم . ثم طلب ليؤتى له بادواته الموسيقية ليعزف لهؤلاء الاوفياء انشودة جديدة .

اجل اراد نيرون ان يبدأ عصراً ذهبياً جديداً لروما ، لذلك عزم ان ينظم لها الانشودة الجديدة . وتذكر نبوة احد العرافين الذي تنبأ له بانه سيكون يوماً ما سيداً لاورشليم . وقد بكى عندما تخيل نفسه يحمل ادوات موسيقاه ويتجول في شوارع المدن يعزف عليها مستجدياً اكفّ المحسنين ، ومتخفياً عن الاعداء .

وظلت الهواجس تتوارد على مخيلة نيرون فتزيده قلقاً واضطراباً . وكثيراً ما نادى بترونيوس طالباً رأيه ، متناسياً تلك الرسالة القاسية التي كتبها هذا المستشار اليه قبل انتحاره . وكلّما سمع وقع اقدام الغوغاء او صراخهم زادت مخاوفه واشتدّ اضطرابه . وحدث انه لما رغب ان يطل من الشرفة ليرى ماذا يجري في الخارج اذا تاج الغار يسقط عن رأسه ، فعاد الى الداخل مذعوراً متوجساً شراً ومحاولاً الاختباء وراء الاستار الكثيفة والاعمدة الضخمة . وكلما سمع الناس يصرخون : « الموت لنيرون » كلّما انكمشت نفسه وزاد اصفرار وجهه .

– وتلفّت حوله فاذا اكتي تدنو منه . فصرخ في وجهها : لماذا حضرت اليتها الفاجرة ! انا قد اقصيتك عن قصري ، وامرتك ان تبرحي ديارى !

– فتطلعت اليه هذه الجارية الامينة بعين حزينة وقالت : ألم اخبرك انك متى احتجت الي جئت اليك هارعة . . . !

– قال : لا تسخري مني او تهزأي بي يا اكتي بل اذهبي عني . . .

وماذا تظنين انهم سيفعلون بي متى داهمت الغوغاء قاعات قصري ؟ !

– اجابت : انهم امـا ان يقتلوك فوراً او يحكموا عليك بالموت لقتلك امك وزوجتك . وانت تعرف مواد القانون ، والعادات الرومانية المتبعة في مثل هذه الحالات من الجرائم . انهم يضعون رأس المتهم كما لا يخفى عليك ، بين شوكة حديدية ثم يلهبون جسمه بالسياط حتى يفقد وعيه ، ومن ثم يلقونه في مياه التيبر طعاماً للاسماك . . .

وعلت الاصوات وسمع وقع اقدام المتظاهرين الزاحفين الى القصر . فقررت اكتي ان تضع حداً لهذه المأساة ، فتناولت خنجراً كان على المائدة وقالت لقد عشت يا نيرون كوحش ، ولكنك يجب ان تموت الآن كامبراطور . خذ هذا الخنجر واغرزه في قلبك ، ولا تدع يداً اخرى ان تمسك . . .

وتراجع نيرون هلعاً وقال : لم تكن رغبتي ان اعيش كالوحش ، بل هي الآلهة التي ارادت لي ذلك ! وجلس يبكي ويقول : هل هذه نهاية نيرون ؟ ! بالامس كنت سيد العالم والآن اغدو قاتل نفسي ! الا يعرف الناس ان فناناً عظيماً سيهلك . . . ؟ ! ثم اخذ يذرع الغرفة ويعدد بعض الاسماء . . . فناجى روح امه . . . وتحدث الى اكتافيا زوجته الاولى . . . وبترونيوس المستشار الوفي . . . وحزن لما علم ان كل هؤلاء اصبحوا في عداد الاموات .

وشاهد پوپايا على مقربة منه فصرخ في وجهها قائلاً : من اجلك يا پوپايا قد اهلكت هؤلاء كلهم . . . وانت التي اشرت علي بقتل المسيحيين . . . ويبدو لي انك انت المجرمة الكبيرة . وقبض

على عنقها بيديه الضخمتين وعصر بهما ذلك الجيد الرخص ، حتى ازهق الروح فيها وظل يردّد ويقول لها : انت شيطاني يا پوپايا – فاذهبي حيث لا تعودين . . . !

وسقطت پوپايا جثة هامدة عند قوائم العرش الامبراطوري . وهكذا انتهت حياة هذه المرأة الشريرة . اما نيرون فعندما سمع صراخ الغوغاء تقرب منه حاول ان يخفي نفسه وراء الاستار مردداً بصوت خافت هذه العبارات : هل يدرك هؤلاء الرومانيون انه ليس في وسعهم ان يعيشوا بدون فني ؟ !

واذ لم يكن ثمة سبيل للفرار او النجاة استلّ الخنجر وادناه من قلبه . وتقدمت اكتي لتساعده على الانتحار ، فامسكت كتفه من الخلف ، ووضعت يدها على مقبض الخنجر لتعضده ساعة يغرسه في فؤاده . وزأر نيرون زأرة مخيفة ، ثم خرّ على الارض والدماء تسيل من جسمه الضخم ، والخنجر مغروس في قلبه الاثيم .

وامسكت اكتي رأسه ، ووضعته بين ذراعيها فتطلع اليها وهو يلفظ النفس الاخير وقال : ما اعظم الفنّان الذي طويت صفحته الآن . . . ! واظهرت اكتي ولاءها لنيرون حتى بعد موته فلفّت جثمانه بقطعة من القماش الثمين ووارته عن اعين الغوغاء . وفي اقرب فرصة مؤاتية احرقته واخفت اثاره . . .

الفصل الرابع العشرون

الحكم للمسيح وحده

وقرعت الطبول ، وصدحت الموسيقى ، وتقدم الجنود من ابواب روما وكلهم يسلك مفاوز تلك الطريق التاريخية التي سار فيها الفاتحون . وتعالت الهتافات من كل ناحية وصوب :

ليحيا غالبا – الامبراطور الجديد .

ليعش غالبا – ان روما ستُبعث من جديد .

ووقف ماركوس وفابيوس على قمة التلة التي وقفا عليها قبل بضعة اشهر ساعة سارت جيوشهما في طريق ابيان محاولة دخول ابواب المدينة الخالدة . وركب ماركوس عربته ، وانتظر مع اعوانه ليؤدي التحية لغالبا – منقذ روما . وتحركت الجيوش الزاحفة امامه وبرز غالبا في وسطها بملابسه الرومانية وبجلاله الملوكي . وكانت هيئته تدل على انه خلق للزعامة والقيادة . وهتف له ماركوس قائلًا : امامك يا غالبا مهمة شاقة ، اذ عليك ان تعيد بناء روما من جديد وان تجعل العدل الروماني يسير في مسالكه القديمة . . .

– وقاطعه فابيوس وقال : اخشى انه يتعذر على روما ان تستعيد امجادها السابقة . اما انا على مثل اليقين انه في وسعنا ان نعيش في عالم اكثر استقراراً ، ومزود بقوى الايمان والرجاء . . .

– وعلّق ماركوس على هذا بقوله : يجب ان يتناغم المجد مع الايمان لان لا قيمة للواحد بدون الآخر . ويجمل بي بعد ان أديت التحية لحاكمنا الجديد ان اذهب حيث تنتظرني زوجتي ليجيا . انني راغب في ان آخذها الى صقلية طلباً للراحة بعد هذه الاحداث المروّعة التي شهدناها .

– قال فابيوس : قبل مدة غير طويلة من الزمن وقفنا على هذه الرابية نتطلع الى المدينة ، وكنت انا المتزوج الوحيد بينكم وانه ليسرنا الان ان نرى ماركوس قد انضم الى زمرتنا . فاهلًا وسهلًا بماركوس – صاحب البيت الجديد السعيد .

– اجابه ماركوس : اني وايم الحق قد انضممت الى زمرتكم سريعاً ، ورجائي منك بان لا تحرمنا زيارتك انت واسرتك الى صقلية في اقرب فرصة سانحة ! وتبادل الرفيقان نظرات الاخلاص والوفاء. ثم ربت ماركوس على كتف صديقه اشارة لمحبته له . وعلى الاثر تركه وهو يلهب ظهور جياد مركبته للاسراع به الى محبته . فانحدرت العربة بسرعة من الرابية واختلط دبيبها مع كلمات الوداع التي كان يهتف بها .

وبعد ساعة من الزمن شوهدت كوكبة من الفرسان تسير في طريق ابيان . وعندما وصل الركب الى المكان الذي ظهرت فيه الرؤيا السماوية للرسول بطرس ترجّل تزاريوس عن حصانه وقال : قفوا قليلًا في هذه البقعة التي كلّم الرب بها بطرس ... فهنا سمع ذلك الصيّاد الجليلي نداء السماء وهتاف كوفادس .

وجثت ليجيا على الارض وقبلتها وقالت : انهـا بالحقيقة بقعة من الارض مقدسة . وتطلع ماركوس الى حيث كانت ليجيا جاثية ، فاذا عصا القديس مغروسة في ارض تلك البقعة . فقال : ها هي البذور التي غرستها ايها الرسول قد بدأت تنمو ، وها هي البراعم قد اخذت تظهر ، والثمار تنضج ... ولا مراء فرائحة المسيح الزكية سوف تتضوع في كل بقاع العالم ...

ولم تتمالك الجماعة الا ان تشترك في ترنيمة روحية هاتفة لحكم المسيح وانتشار سلطانه . فانشدوا ذات الترنيمة التي ترنم بها المسيحيون الذين حُكم عليهم بالموت والاستشهاد في ميدان الامفيثياتر الكبير .

*

ولشدّما زال حكم نيرون وتوارى مثلما تتوارى العاصفة او تنطفىء شعلة النار ، بيد ان حكم المسيح ظل راسخ الاركان وطيد البنيان . ويشاهد الزائر في ضواحي روما الآن كنيسة اثرية اقيمت فوق تلك الطريق التاريخية المواجهة لتلة القاتيكان . وفي وسع الزائر ان يقرأ على اعتاب تلك الباساليكا التاريخية العبارة الخالدة – **كوفادس** وهي العبارة المدوية التي اوحت الى كتابة هذه القصة العظيمة ...

QUO VADIS DOMINE

[redacted]
مطر ،ابراهيم
كوفادس: وهي قصة الفيلم المرتكزة عل
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032734

American University of Beirut

[redacted]

General Library

891.853
Si57qA